حياة الغوص
وأثرها على الاتجاهات الأدبية المعاصرة

الدكتور / على عبد الخالق على

الأدب والحياة :

إن تعبير الأديب عن (ذاته) إنما هو محاولة لتحقيق الهوية وإثبات التفرد ، وطريق للظهور على المستوى (الفردى) والتواجد على المستوى (الجماعى) وإذا كان علماء التحليل النفسى يتركون مرضاهم يتحدثون لاستخراج ما فى الداخل من انفعالات ومشاعر مكبوتة ومن رؤى وخواطر مستكنة : فكذلك الأديب يحاول التحرر من همومه ومشاكله بالتنفيس عما بالداخل ، والكشف عن المستور « والتعبير الأدبى . . إنما هو محاولة من الأديب للتسامى على الذات عن طريق الكتابة : وهو يتسامى حين يحيل الصدام والصراع فى الحياة إلى قصص وروايات . ومعنى هذا أنه ارتفع على مستوى الأحداث ، وسما عن مجرد التجربة الشخصية ، كما ارتفع عن الوجود السلبى (المنفعل) إلى الوجود الإيجابى (الفعال) ؛ فكان فى عمله متعة لنفسه ؛ ومتعة لغيره »[1] . و(الذات) القائلة هى (الذات الاجتماعية) التى تبيح للشاعر أن يقول ما يقول ؛ وإن بقيت ثمة أمور متوارية فى (الذات الخاصة) .

ومن شأن الأفكار الالتزام بالقيم (الموضوعية) المقبولة ، والتقيد بالقيم

---

(١) عثمان (الدكتور أمين) فى اللغة والفكر ١٦ - القاهرة سنة ١٩٦٧ . مطبعة النهضة الجديدة . مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية .

(التعبيرية الأدائية) الجيدة ، وإبراز القيم (الشعورية) الصادقة . وأن تتخلص من سطوة (اللاوعي) أو تتخفف من حدته . ولذا تبدو وظيفة الأدب – مع الامتاع والمؤانسة – (القيم الجمالية) وظيفة اجتماعية خاصة ، ومضمونا إنسانيا عاما . وقيمة الموضوع الأدبى لا تتحقق إلا من خلال أداة جيدة (اللغة) . ووسيلة الاتصال اللغوى بالجماعة كفيلة بإخراج الأديب عن عزلته وسلبيته وانطوائه ، وتحريره من المشاعر الذاتية الضيقة التى قد تجعله فى حالة إحباط وانزواء وراء حدود (الذات) فحسب .

ولا يمكن إغفال أثر الاتجاهات والأنماط السلوكية فى الجماعة على الحياة الأدبية كالعادات والتقاليد والأعمال والحرف[1] . . وباقى التغيرات الاجتماعية .

ومن الظواهر الاجتماعية التى تميز بها أهل الخليج عن غيرهم منذ القدم حبهم لركوب البحر وحياة الغوص[2] على اللؤلؤ فى (الهيرات) ؛ وهى ظاهرة اجتماعية إنسانية ، ومهنة حرة تدل على وجه من وجوه التواجد الاجتماعى ، والتلاقى لوجوه على الشط لمجتمع ما قبل (النفط) يتخذونها وسيلة للعيش ،

---

(١) جمع حرفة ، وهى الصناعة يرتزق منها ، وكل ما اشتغل الإنسان فيه دُرِّب عليه يسمى صنعة وحرفة ، لأنه ينحرف إليها (يميل نحوها) .

(٢) غاص فى الماء غَوْصًا بفتح المعجمة وغُوصا بضمها : نزل تحته ، وغاصَ فى البحر على اللؤلؤ : نزل تحته ليستخرج اللؤلؤ ، والغائص جمعها غُواص وغاصة ، وصيغة المبالغة (غَوّاص) وهو الذى مهنته البحث عن اللؤلؤ . والغَوص كما يطلق على الدخول تحت الماء يطلق على الموضع الذى يستخرج منه اللؤلؤ ، كما يطلق على المكان (مَغاص) و(مغاصات) الوَلوُ هى (الهيرات) . والغياصة بكسر المعجمة : حرفة الغواص والغاصة : هم مستخرجو اللؤلؤ .

والقامِس : الغائص ومثلها القَمّاس ، والقمْس : الغوص . والغَواص فى اللهجة الخليجية (غِيص) وغَاصة والغَوّاصة سفينة حربية معدة للغوص .

واللؤلؤة : الدرة وجمعها : لُؤلؤ ولآلىء ، واللؤلؤة الكبير : دُرّة : وجمعها دُرٌّ ودُرَرٌ ودُرّات ، والجوهرة : كل ما يستخرج منه شىء ينتفع به ، وجمعها جواهر ؛ وهو اسم عام لجميع الأحجار الكريمة ، ثم خُصّ بها اللؤلؤ لفضله أما الجُمانة فهى اللؤلؤة المثقوبة ، وتسمى الشّذرة ، وما لم يُثقب من اللآلىء يسمى دُرًا وحَبًا وخرائد .

راجع : تهذيب اللغة ٨ /١٥٨ . لسان العرب ٨ /٣٢٩ . القاموس المحيط باب الصاد فصل الغين وباب السين فصل القاف .

وسبيلا لتحقيق الذات وإبراز الهوية الخليجية وطموحاتها فى كشف المجهول ؛ مثلما كانت حياة الرعي ، وطلب الكلإ للبداة فى الصحارى والوديان تمثل عالما آخر فيه راحة النفس وسلواها بعيدا عن ضجيج المدينة ، وإيقاع حركتها السريعة ، وتطلعات أهلها المادية . ومن ثم عاود العربي حنين جارف لخيمته ، ولرِباعه ودوابه وبيئته . وهذا الافتتان بالبيئة والحنين (للماضى) قد يتخذ شكل تمرد على (الحاضر) ، ورفض لحياة المدنية ، وما فيها من بريق زائف ومادية طاغية ، وإن اجترار ذكريات حياة الغوص يعد اتجاها وطنيا وحبا للجماعة ووفاء للأجداد . والحنين للماضى ملمح إنسانى ، ونزعة (رومانسية) لها مغزاها النفسى والخلقي والاجتماعي . على أن هذا الحنين لم يكن ليتوقف عند حد (التقديس) والخوف من الحاضر والعجز عن فهم التغيرات الطارئة ، والفشل فى التعامل معها ؛ ولكنه حنين القدرة على التحليل ، وإظهار وجوه المفارقة والتناقض بين جيلين وحياتين ، والعود لذكريات (الماضي) فيه كشف للجوانب السلبية ، ومواجهة (الحاضر) لتنظيم (المستقبل) ؛ فهو (موقف) رفض ورغبة فى التغيير والتفتيش عن (الأصيل) فى الزمن الغابر لا لإعادته أو الوقوف عند عراقته ومقارنتها بسلبيات (الحاضر) بل تجاوز المرحلتين لمستقبل أكثر نفعا .

ولمثل هذا عبَّرتْ خواطر (العَدوانى)[1] فى (رائِيته) (صفحةً من

---

(١) أحمد مشاري العدواني شاعر كويتي ولد سنة ١٩٢٣ ودرس فى (الأحمدية) ثم (المباركية) ، وابتعث سنة ١٩٣٩م إلى الأزهر ، فنال الإجازة العالية من كلية اللغة العربية ثم عاد للكويت سنة ١٩٤٩م فتنقل ما بين التدريس والإعلام والثقافة وبدأ الكتابة مبكرا فى مجلة البعثة ثم شارك فى الكويت في إصدار مجلة (الرائد) و(البعث) ، واختير مراسلًا لمجمع اللغة العربية بالقاهرة من الكويت .

ويعد (العدوانى) من رواد حركة التجديد فى منطقة الخليج ، وتمثل فى شعره التيار العربى التراثي والتيار التجديدي الغربي ، وشعره يقوم على الأسلوب الحواري والتمثيلي ، وفيه نزعة رمزية ورومانسية ، وشعره إما دعوة للنهضة أو توجيه أو نظرة فلسفية ، ويستعين بالرمزية كثيرا للتعبير عما يريد مثل قصيدته (إياك يا صديقى يا جمل) و(رعاة الشاة) و(مرت الأيام تترى) ولم يطبع من شعره سوى مسرحية شعرية ذات مغزى سياسى تحكى ضياع فلسطين (مهزلة فى مهزلة) وصدر ديوانه (أجنحة العاصفة) سنة ١٩٨٠ .

راجع : الطائي (عبد الله محمد) الأدب المعاصر فى الخليج العربى ١١٥ — ١٢١ . القاهرة سنة ١٩٧٣ مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ؛ الشرباصى (أحمد) أيام الكويت ١٥٤ ؛ =

مذكرات بدوي) :

كنتُ هنا ، وكان لي بيتٌ من الشَّعْرْ
نَسجْتُه ، صنْعَ يدى ، بالصوُّفِ والوبرْ
قـامَ على رابيـةٍ مُـخضَّرةِ الطَّـــرر
تَؤُمُّه الضيفـان بيـنَ مرتـقٍ ومُنْحـدرْ
والشَّمسُ تفتر له ، ويضحك القمـر
مـلاعبُ الربيـع بـالأعشابِ والزَّهـــر
تَمرحُ فى أرجائِها الأغنامُ فى بَطَـر

وحين حدث التغيّر الاجتماعي ، وطرأ على رتابة الحياة وبساطتها وتلقائيتها إيقاع سريع وحركة متباينة التعقيد أحس الشاعر بمدى الفجوة ، وأن ما يراه من قصور إن هي إلا حجر قصورها كالمقابر : لذا عبر بمشاعر (رُومانسِية) عن حنينه للماضي :

ملاعب الربيع قد حلَّتْ بها الـغِير
عفَا على آثارِها ناسٌ من الـحَضَر
شَادوا عليها لَهُم القصُور من حجر
كأنَّهـا مقابـرٌ معكـــوسةٌ الصُّور[1]

ومن المؤكد أن مهنة الغوص قديمة منذ كانت الحياة على شاطىء الخليج ؛ فقد اشتغلت فيها القبائل التى استقرت على سِيف الخليج ، واشتهرت منذ شعراء العصر الجاهلي وما بعده . وتُعد القصيدة (الرائية) المنسوبة (للمُسيَّب بن علَس)[2]

= الزيد (خالد سعود) أدباء الكويت فى قرنين ٢ /٣٩١ - ٣٩٥ . الكويت سنة ١٩٨١ . الطبعة الأولى ؛ الوقيان (خليفة) القضية العربية فى الشعر الكويتي : ٦٠ .

(١) العدواني (أحمد مشاري) : أجنحة العاصفة ١٦٢ جمع خالد سعود الزيد ، والدكتور سليمان الشطي - الكويت سنة ١٩٨٠ نشر شركة الربيعان للنشر والتوزيع .

(٢) زهير بن علس بن مالك . . البكري ، خال الأعشى بن قيس وهو شاعر جاهلي معاصر لعمرو بن هند ، ويعد من فحول شعراء بكر على الرغم من قلة شعره ، وله شعر في مجال الرثاء والغزل ووصف النحل واللؤلؤ وشعره عذب سهل ، وتوفى سنة ٥٨٠م حوالى ٤٢ قبل الهجرة .

أو (للأعشى)[١] من أقدم النصوص الأدبية التى تتناول ظاهرة الغوص ، وما يتصف به الغاصة فى الخليج من صفات وعادات ، وهم يبحثون عن الدر ، وقد حلّ بهم النصبَ ، وتملكهم اليأس فى تحقيق غايتهم ، وفيها حديث عن الغواص ورفقته ، وهم يقاسون الأهوال بحثًا عن درة طالما جدَّ أبوه قبله فى البحث عنها ؛ لكنه هلك دونها ؛ فتابع فعل أبيه حتى عثر على بغيته ، وكأنه عثر على حبيبته :

صُلب الفـؤادِ رئـيسُ أربعـةٍ ... مُتَخالِفـي الألـوانِ والنَّجْـرِ
فتنازعُـوا حتـى إذا اجتمعُـوا ... ألقَـوْا إليـهِ مقالـدَ الأمْـرِ
وعلَت بِهـم سَجْحاءُ خادمـةٌ ... تَهـوِي بهم فى لُجَّـةِ البحـرِ
حتـى إذا مـا سَاء ظَنَّهُـم ... ومضَى بِهـم شَهَرْ إلى شَهْـرِ
ألقـى مراسِيـه بِتَهْلُكـةٍ ... ثَبَـتَتْ مـراسِيها فمـا تجرى
قَتَـلتْ أبـاهُ ؛ فقـالَ : أتبعُـهُ ... أو أستفيـدَ رغيبـةَ الدَّهـرِ
فـأصابَ مُنيَتَـهُ فجـاءَ بِهـا ... صَدَفِيَّـةً كمُضيئَـةِ الجَمْـرِ
يُعطَـى بِهـا ثمنًـا ويمنعُهـا ... ويقـولُ صاحبُـه : ألا تَشرى ؟
وتَرى الصَّرارَى يسجُـدُونَ لها ... ويضُمُّهـا بيديـهِ للنَّحْـرِ
فتـلكَ شبـه (المالكيَّـة) إذْ ... طلعَتْ بِبهجَتِها مـن الخِـدْرِ[٢]

وثمة شعراء آخرون أشاروا لمهنة الغوص إشارات تؤكد انتشارها فى زمانهم ؛ منهم (المُخَبَّل السَّعدِى)[٣] و(أبو ذُؤَيْب الهُذَلِى)[٤] .....

---

(١) نسبها الدكتور محمد محمد حسين للأعشى أبى بصير ميمون بن قيس بن جندل بن بكر وائل ، وتوفى سنة ٦٢٩م .
انظر د . محمد محمد حسين : ديوان الأعشى الكبير ، القاهرة ، سنة ١٩٥٠ ، دار الكتب .

(٢) البغدادي : خزانة الأدب ١ /٥٤٣ - القاهرة (بولاق) . والنجر : الأصل . سجحاء : وصف لسفينة تامة الطول والعظم . الصرارى : الملاحون ، ومفردها : صار . المالكية : محبوبته .

(٣) انظر المفضل الضبي : المفضليات ١ /١١٣ - ١١٨ والمخبل السعدي (أبو زيد ربيع بن مالك) شاعر مخضرم مقل مات فى خلافة عثمان بعد أن هرم .

(٤) انظر : بروكلمان (كارل) : تاريخ الأدب العربى ١ /٣٦ - ٣٧ ، ،ابو ذؤيب (خويلد بن خالد بن محرث . . بن هذيل) كان راوية لشاعدة بن جؤية أسلم وحسن إسلامه ، وله شعر جيد فى الرثاء توفي سنة ٢٨هـ / ٦٤٩م .

و(الفَرَزدَق)[١] و(القَطامِى)[٢] وأمثالهم ؛ فقد ورد تشبيه الحبيبة بالدرة التى يسعى لها الغوّاصون فى شعر للأعشى ، وأن هذه الدرة يحرسها (مارِد) من غواة الجن :

كأنّها دُرةٌ زهراءُ أخرجَها ... غَوّاصُ (دَارين) يخشَى دونَهُ الغَرقا
قد رامَها حِججًا مُذْ طرَّ شارِبه ... حتى تسَعْسعَ يرجوها ، وقد خَفقا
لا النفسُ تؤنسُهُ منها فيترُكها ... وقد رأى الرُّعبَ رأْىَ العين فاحْترَقا
ومارِدٍ من غُواة الجِن يحرُسها ... ذو نيقةٍ مستعِدٌّ دونَها تَرقَا
ليست له غفلةٌ عنها يطيفُ بها ... يَخشَى عليها سُرَى السارِينَ والسرَّقا[٣]

و(المخبَّل السَّعدى) يرى حبيبته على نحو هي أفضل ما يكون الدر الذي جاء به غواص ماهر نحيف مدرب على المهنة :

كعقيلة الدُّر استضاءَ بها ... مِحرابُ عرشٍ عزيزها العجْم
أغلى بها ثمنًا ، وجاءَ بها ... شَخْتُ العِظام كأنّه سَهمُ[٤]

وَ(لَبيد)[٥] يصف البقرة الوحشية الناصعة البياض ، والتي عد ناقته مماثلةً

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني : كتاب الأغاني ١٩ /٢ - ٥١ ، والفرزدق (أبو فراس همام بن غالب من بني تميم ٢٠هـ / ٦٤٢ - ١١٤هـ / ٧٣٢م) .

(٢) زيدان (جورجي) : تاريخ آداب اللغة العربية ١ /٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٣) انظر الأعشى (ميمون بن قيس) ديوان الأعشى الكبير ٢٦٧ شرح وتحقيق الدكتور محمد محمد حسين - القاهرة سنة ١٩٥٠م . وتسعسع : كبر حتى هرم وولى ، يقال : تسعسع عمره : قرب الانتهاء . وتسعسع : بلى وتغير إلى الفساد . والنيقة : المبالغة فى التجويد يقال (خرقاء ذات نيقة) يضرب للجاهل بالأمر ومع جهله يدعى المعرفة ويتأنق فى الإرادة . والنيق : المبالغ فى تجويد أموره . والنواق : متعهد الأمور ومصلحها ، ويقال : ترقى فلانا ترقاة : أصاب ترقوته ، وهي عظمة مشرفة بين ثغرة النحر والعاتق : كناية عن مشارفه الموت . وطاف من باب قال وباع : استدار حول المكان وأحاط به .

(٤) المفضل الضبى : المفضليات ٢١٣ - دار المعارف بمصر .

(٥) أبو عقيل لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر العامرى حوالى ٥٤٠ أو ٥٤٥ - ٦٦٥ أو ٦٦٩م ، شاعر جاهلى أدرك الإسلام واسلم وحسن إسلامه وتوفى فى خلافة عثمان بن عفان مما بين ٣٥ ، ٣٨هـ وهو من شعراء المطولات وشعره فى الحماسة والفخر والمديح والرثاء والوصف ؛ ومطولته بدويه الخصائص .

لها : فالبقرة تشبه جُمانةً (اللؤلؤة الصغيرة) الغواص المنزوعة الخيط وهى فِضية البريق :

وتُضيءُ فى وجهِ الظلامِ منيرةً كجمانَةِ البَحريِّ سُلَّ نِظامُهَا

ومثل هذه الإشارات موجودة فى شعر (أبي ذؤيب الهذلي) و(الفرزدق) و(القطامي) وغيرهم .

وشاع الحديث عن مهنة الغوص على اللؤلؤ فى المؤلفات القديمة ؛ فتناول الحديث طريقة تكوينه وأساليب استخراجه وأصنافه وأسماءه وأماكن وجوده واستخداماته وقيمته المادية ؛ فمنذ القرن الهجرى الثالث نجد (الكندي)[١] و(الدِّينوري)[٢] و(المسعودي)[٣] و(السيرافى)[٤] و(البَيروني)[٥] و(التَّيفاشي)[٦] و(الإدريشي)[٧] يخصونه بنوع حديث مجمل حينا ومفصل

= انظر : أبو زيد القرشى : جمهرة أشعار العرب : ٣٢ : الجاحظ : البيان والتبيين ٤ /٨٤ ، وديوان لبيد بتحقيق ضياء الدين الخالدي المقدسي فينا ١٢٩٧هـ /١٨٨٠م .

(١) أبو يوسف يعقوب بن اسحق(٨٠٣ - ٨٧٣م) فى مؤلفه (أنواع الجواهر الثمينة) .
أنظر : ابن النديم : الفهرست ٢٦١ .

(٢) نصر بن يعقوب الدينورى .

(٣) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي ، ينسب لابن مسعود (٢٨٥هـ / ٨٩٨م - ٣٤٦هـ /٩٥٦م) . ولى فى بغداد وتوفى بمصر ، وهو جغرافي رحاله ، له (مروج الذهب ومعادن الجوهر) تحدث فيه عن بدء الخليقة والأنبياء حتي عهد الخليفة العباسي المطيع سنة ٣٣٤هـ .
انظر : ابن النديم : الفهرست ١٥٤ ، معجم الأدباء ١٣ /٩٠ ؛ فوات الوفيات ٢ /٥٧ ؛ كارل بروكلمان ١ /١٥٠ .

(٤) أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي (٢٨٠ /٨٩٣م - ٣٦٨هـ - ٩٧٩م) ولد فى سيراف على الشاطىء الجنوبي الغربي لخليج البصرة .
انظر : الفهرست ٦٢ - ٦٣ ؛ الخطيب : تاريخ بغداد ٧ : ٣٤١ - ٣٤٢ ، بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ١ /١١٥ .

(٥) ٣٦٢ - ٤٤٠هـ .

(٦) شرف الدين أبو العباس بن يوسف القيسي التيفاشي (٥٨٠ - ٦٥١هـ / ١١٨٤ - ١٢٥٣م) ولد فى تيفاش من قرى قفصة بتونس ، ومات بالقاهرة وكان واسع الإحاطة بفنون الأدب ، ومن مؤلفاته أزهار الأفكار فى جواهر (الأحجار) .
(انظر : كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي (١ /٦٥٢ ، الوافي بالوفيات ٨ /٢٢٨ - ٢٩١) .

(٧) أبو محمد عبد الله بن محمد المعروف بالشريف الإدريسي (٤٩٣ - ٥٦١هـ) .

حينا آخر . وقد أسهب (ابن بطوطة)[1] فى الحديث عن المغاصات ، وعن طريقة أستخراج اللؤلؤ على نحو قال فيه « . . ومغاص الجوهر فيما بين (سيراف) و(البحرين) فى خور راكد مثل الوادى العظيم ؛ فإذا كان شهر إبريل وشهر مايو تأتي إليه القوارب الكثيرة فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف . . » ويصف طريقة الغوص ، وكيفية توزيع الغلة فى دقة فيقول « . . ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد أن يغوص – شيئًا يكسوه من عظم الغليم وهى السلحفاء ، ويصنع من هذا العظم أيضًا شكلا شبه المقراض يشده على أنفه ، ثم يربط حبلا فى وسطه ويغوص . ويتفاوتون فى الصيد فى الماء . . فإذا وصل إلى قاع البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الأحجار الصغار مثبتا في الرمل ؛ فيقتلعه بيده ، أو يقطعه بحديدةٍ عنده مُعَدةٍ لذلك ، ويجعلها في مخلاة جلد منوطةٍ بعنقه . فإذا ضاق نفسه حرك الحبل ، فيحس به الرجل الممسك بالحبل على الساحل فيرفعه إلى القارب ؛ فتؤخذ منه المخلاة ، ويفتح الصدف فيوجد في أجوافها . . فيجمع جميعها من صغير وكبير ؛ فيأخذ السلطان خُمْسَه ، والباقى يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب ، وأكثرهم يكون له الدين على الغواصين ؛ فيأخذ الجوهر في دَيْنه ، أو ما وجب له منه »[2] .

وإذا كانت هذه الإشارات تدل على أن الحديث عن المهنة قديم فالمهنة ذاتها كانت معروفة لدى أبناء الخليج ، يعملون بها في نطاق واسع ، وفي عصور مختلفة ؛ حتى إن (ابن بطوطة) شاهد عن كثب حركة الغوص فى رحلته لمنطقة الخليج فى القرن الهجري الثامن . ولم يتوقف يوما النشاط فيها ؛ بل استمر وامتد

---

(١) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ٧٠٣ – ٧٧٩هـ /١٠٣٤ – ١١١٣م ولد بطنجة ومات فى مراكش ومن مؤلفاته رحلة ابن بطوطة .

انظر : دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٧٣٥ – ٧٣٦ ، كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ٢ /٣٣٢ – ٣٣٣ الزركلى : الأعلام ٧ /١١٤ ، عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ١٠ /٢٣٥ .

(٢) شمس الدين أبو عبد الله اللواتى : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ١ /٣٠٤ تحقيق الدكتور على المنتصر الكناني – بيروت ١٩٨١م الطبعة الثالثة ، مؤسسة الرسالة .

ليشمل معظم الساحل الخليجي ؛ فصارت مهنة أساسية للارتزاق ، ومورداً للربح فى النصف الثاني من القرن الميلادى التاسعَ عشرَ وإلى الثلاثينيات من القرن الميلادي العشرين كما سيتضح من مؤشرات الإحصاءات لحركة السفن وعدد الغواصين والتجار .

وشأن حياة الغوص توجيه الأدب ليتجاوز حدّ التعبير عن مظهرها المتغيِّر والدلالة على أحوالها إلى مرحلة (الانفعال) بها ؛ بل وإلى التواجد الإيجابى (الفعّال) وليس مجرد مرآة لهذه الحياة ؛ لما بين الإبداع الفني ومناشط الحياة المختلفة من علاقة وصلة مؤثرة فاعلة ومنفعلة . والأنماط السلوكية لها قدرة عجيبة على أسلوب حياة الفرد وعلى نشاط الأسرة وعلى سلوك الجماعة . والنظام الاجتماعى والاقتصادى لحياة أهل الشاطىء هو الذي أصّل لدى أبناء الخليج القدرة على الحركة المستمرة والارتحال وركوب البحر ، وهو الذي أثر في ظهور لون من الأدب يمثل حياة الغوص على اللؤلؤة ؛ مما يُعد إحدى السمات المتعلقة بالأدب العربى فى منطقة الخليج على وجه الخصوص ، والمميزة له عن باقي بيئات الأدب في مناطق مثل الشام ومصر والسودان والمغرب . وقد استدعى هذا النظام الاجتماعى وجود طائفة من الآدباء تنزع فى موضوعاتها وأفكارها ، وفى استثارة مشاعرها ، وتعميق خيالها وصورها التعبيرية وأشكالها الفنية – إلى استلهام حياة الغوص . كما أن التعبير الاجتماعي وسمات النظام القبلي وغلبته كون فئة تملك المال ، وأخرى تملك الجهد فالتقت مصالح الفئتين ، وسلك الكثير مهنة الغوص ، وارتادوا البحار ، وجابوا المغاصات بحثًا عن الرزق : فكان التواجد الإيجابى (الفعال) فى وعى الأدباء المعاصرين هو الدافع وراء تسجيل تلك المواقف ، وتصويرها فى أشكال فنية ، وصياغة موضوعاتها بما يجعل منها سِجِلًا وافيًا ورصدًا للبعد الزماني والمكاني فى حياة العربى .

وبمقدار انجلاء دور الأدب في (الانفعال) بحياة الغوص وانعكاسها فى أشكالها الفنية يكون انجلاء تأثيرات الحياة ذاتها على الأدب . وليس ثمة من هو أعمق قدرة

على تصوير واقع حياة الغوص ، وتجسيد ما فيها من معاناة ، وإلهام المتلقين ما استوحى منها - من مبدع الفن وراعيه ؛ فبتصوير الأديب لحياة الغواصين ، ومدى انفعاله بمعاناتهم ، وما هو حاصل لهم يكون انفعاله بحركة الحياة من حوله في قيمها ونظمها وأعرافها ، ويكون تسجيله للسلوك الاجتماعي فى العادات والتقاليد ، وفى الآلام والآمال وفى الحركة والاستقرار .

ولا شك أن الأدب الصادق البعيد عن الزيف يتشكل من مادة الحياة كما يتشكل من إبداعات الفن واصوله . والأدب الجيد لا تشكله الموضوعات التى تصور الحياة بقدر ما تحدده درجة الإحساس بالموضوعات ، وطريقة التعبير عن (الانفعال) ؛ فأيما مشاعر استجاشت النفس وسمت بها ورفعت من نبض الوجدان ، وجعلت النفس تحس بالوهج ، وتنطلق لعالم مجهول ؛ فهي مشاعر صادقة . والذين يُعْنَون بتسجيل مراحل الغوص سيجدون فى الأدب المعبر عن ذلك من الظواهر ، ومن الدلائل على خلجات النفوس وصورة إنسان الغوص ما لا يجدونه فيما سواه .

والمضمون الاجتماعى لأدب الغوص يستوحي من منبع أصيل ، ليس هو (واقع) حياة الغواصين حسب ؛ فحياة الغوص ممتدة في الزمان ، ومرت عليها قرون دون أن تستثير وجدان أديب ؛ ولكنه يستخلص في الأساس من (موقف) الأديب تجاه المِهنة ، ومدى إحساسه بشريحة من شرائح المجتمع تعمل في الغوص وتتحمل العواقب في السراء والضراء والمنشط والمكره والعسر واليسر .

ولسنا بصدد حصر العوامل المتشابكة التي جعلت من الأدب في الخليج فيما قبل صورة باهتة لملامح البيئة إلى أن ظهرت صورة الغواص لدى الشعراء المعاصرين ؛ فقد يكون عذر الأجيال السابقة أن نتاجهم لم ينفذ لدقائق البيئة المحلية ، وما يدور فيها من رؤى حياة ، ولعلهم لم يدركوا على نحو دقيق رسالة الأدب في (الأنفعال) بالحياة . حتى كان الجيل المعاصر أكثر التصاقًا بالواقع الاجتماعي ، وبالطبقة الفقيرة القادرة على صبغ نتاجها بالصبغة المحلية ؛ فكان

الأدب الحديث ايذانًا بوضوح الرؤى وإدراكًا لوظيفة الأدب ولعلاقته بالحياة ؛ ولذلك فإن أهمية المضمون الاجتماعى لدى شعراء الخليج المعاصرين تنبع من مدى الصدق في دقة تصوير حياة الغوص ؛ فأضافوا لمجموع القيم الإنسانية قيمًا موضوعية جديدة ، وقيمًا شعورية وتعبيرية خاصة ؛ ذلك أن حياة الغوص جسَّدت الحب بمعناه العام ؛ حب الوطن والجماعة والمكان ، وأصلت لدى الإنسان العربي على سيف الخليج القدرة الخلاقة على الحركة المستمرة ، والنشاط والارتحال والغربة والانفتاح على المجتمعات والفراق والوحدة ، وعمقت في نفسه صفة المبارزة ، والقدرة على المواجهة والتحمل وارتياد المخاطر والمجاسرة فى تخطي العقبات ، واكتشاف المجهول والإيثار والتفاني وسيطرة روح الجماعة والقبيلة ودقة العمل وقوة الإيمان والثقة والبساطة والوضوح ورضا النفس والصلابة والصرامة والمثابرة . . وكل ذلك ظل أسلوب الحياة حتى بعد انتهاء المهنة[١] .

ولا شك أن حياة الغوص حققت فى الإنسان الخليجي كل معاني الوفاء والبذل والإيثار وإنكار الذات ، وسيطرة روح الجماعة وقت الأزمات ، وقصيدة (المسيرة للعتيبة تعبير عن روح الجماعة فى البحر[٢] :

فإذا الأمواجُ ثارَتْ ، ولها صَارت رهينةْ
برز الإيثارُ فيهم ، وبطولاتٌ دفينةْ
قهرُوهـا بثبـاتٍ وارادات مَكينـةْ
رفع (النَّهَّام) صوت العزم بالصبر ينادي
مُنشدا : للرزق أسْعَى ، وعلى الله اعتمادي
فاستريحى يا عيون الأهل من شَوْكِ السُّهادِ

---

(١) الصرعاوى (عبد العزيز) : دراسات فى الشئون الاجتماعية والعمالية ص ٢٩ ، الكويت سنة ١٩٦٥ ، مطبعة حكومة الكويت .

(٢) العتيبة الدكتور (مانع سعيد) من شعراء الإمارات ، وشعره يحمل ملامح وطنية يعمل وزيرًا وثقافته عربية والقصيدة على (مجزوء البحر والرمل) فيها وحدة متنامية متنوعة القافية وتقع فى ثمانية عشر بيتا .

ظهور البترول :

وقد أدى التغير الاقتصادي الطارىء بظهور البترول ، وما صاحبه من تغيّر في أنماط السلوك والعادات ونوع العمل إلى وجود فجوة عميقة ؛ حيث أختفت مهنة الغوص ، واختفت معها صور إنسانية ، وصفات تتدفق نبلا وإيثارًا وجرأة وعظمة ، وصارت مجرد حكايات تسرد ، وصور قديمة شاحبة وباهتة تذكر[1] . حتى قيض للحياة الأدبية محاولة استعادة هذه الصور ، وتسجيلها كوثائق شاهدة على العصر . ولا شك أن موضوع الغوص أثْرى فى الحياة الأدبية بموضوعات وبخيال وصور وتعبيرات بقيت إفرازا تَرجم عنه الأدباء المعاصرون . وهذا شأن الأدب الجيد أن يكون دائمًا فى خضم الانفعال بالموقف ، يثرى فى حياة الجماعة ، ويؤثر عليها ، وينفعل بها ، ومن ثم يكتب له الخلود والحيوية والتأثير . وهو صورة تختلف تمامًا عن أدب الزيف والكذب والنفاق ؛ أدب التكسب والتجارة .

والأدب الاجتماعي الذي يصور حياة الغوص ، ويعايش البحارة له مظهر (ذاتي) لا يبرأ من الصلة بينه وبين منشئه ، ومظهر (جمْعِىّ) يجعل من المبدع فردًا فى جماعة ؛ فحياته لا تُتصور إلا على أساس وجوده فيها ، ومدى تأثره بها ؛ فالأديب ثم ظاهرة إجتماعية ، والأدب الذي ينفعل بمهنة الغوص هو ظاهرة اجتماعية كذلك . وفى هذا يكون النتاج الأدبي مرصودا من زواياه المختلفة ؛ زاوية المنشىء وزاوية المتلقى ، ثم زاوية النص بذاته ودلالاته على المحورين الأخيرين فى تداخل ، ويمثل أدب الغوص الاتجاه الواقعى بوصفه منزعا طبيعيا بعيدا عن الغلو ، وعما يجافى المغزي الحقيقى لرسالة الفن . وعن الإطار الشكلي الخالي من المضمون الاجتماعي والإنساني العام .

★ ★ ★

---

(١) شكري الدكتورة (علياء) : بعض ملامح التغير الاجتماعى الثقافى فى الوطن العربى ١٧٩ - القاهرة سنة ١٩٧٩ طبعة١ دار الكتاب للتوزيع .

الإنسان الخليجي بين البعد المكاني والزماني والرمز التاريخي :

تعلق الإنسان العربي بالخليج تعلق نشأة وإنتماء ، وارتبط ببره وبحره ارتباطا دلَّ عليه أدب الشوق والحنين ومعاناة الغربة ؛ حتى تجاوز مفهوم (الوطن) عنده أن يصير مجرد رقعة من الأرض يعيش عليها قومه وعشيرته إلى معنى عام أسمى ، وإلى مبعث شعور عربي وقومي أسير لديه ، يترجم عنه شعور فيَّاض بحب العشيرة والقبيلة والأرض والروح العربية الأصيلة .

وكان لإيلاف العربي لباديته ولخليجه باعثه في البحث عن الرزق ، وفي تأصيل وجدان الجماعة في آلامها ، وتحريك المشاعر النفسية والاجتماعية التي يشكل عالم البحر والبر أهم مظاهرها وقيمها الموضوعية والفنية . ومن ثم تغنى الأدباء بالأرض وبالخليج وبالطبيعة على نحو قول (مبارك بن سيف آل ثاني) يخاطب (الخليج) :

سقياكَ من ماء الجِنَان عطاءُ ؟ أم في الضِّفاف تدفَّقت صَهْبَاء ؟
لك يا (خليجُ) تحيةٌ وولاءُ هي ذي القلوبُ ، ونهجُها القُدماءُ
في الحُب في الإخلاص في شيم الذرى في العهد ، إنا للعهود وفاءُ
في سيرة هي كالشهابِ بريقها ضاءت بشطَّك سيرةٌ سمْحاءُ
بوابة التاريخ في أنشودةٍ ضاءت على أبياتِها الآلاءُ
يا خير من أنِس الوجودُ جمالَه إنّ الحياةَ بحسنه زهواءُ
وسقيت ماء الخالدين هديَّة فمن الشآم إليك جاء الماءُ
يا بحرُ إني قد عَجزت عن الرؤى واحتار في وصف الجمالِ ثناءُ
وعجزت عن وصف الضفاف إذا الضُّحى نَشر الضياء عليكَ فهو رِداءُ
والليلُ إن أرخى عليك سدولَه عكَست مياهُك ما حوتهُ سماءُ
كم قد سمعت مناجيا لحبيبه في مقلتيه تصبُّر وشقاءُ
زُفَّتْ إليك الفلك وهي عَرائسٌ خجْلَى ، وإن العاشِقين سواءُ

يا بحرُ إن بَعُدت مرابعُ أمسِنا فالذكرياتُ - إذا نأيت - عزاءُ[١]

وعلى نحو ما يصور فيه (غازي القصيبي)[٢] مدينة المنامة : -

الضوءُ لاح.. فديت ضوءكِ فى السواحلِ يا (منامهْ)
فـوقَ الخليـجِ أراكِ زاهيـة الملامـحِ كابتسامـةْ

.....

يـا موطنـى ذا زورق أوفى علـيك فخـذ زمامـه[٣]

ومثل قوله فى قصيدته (أغنية للخليج) :

أتيتُ أرقب ميعادِى مع القمر يا ساحرَ الموج والشُّطان والجزُر
هديَّتـى رعشَتـا شوقٍ وقافيـةٌ حملتها كلَّ ما عانيتُ فى سفرى

.....

خليجُ ما وشْوشَ المحار في أُذنى إلا سمِعْتُك صوتا دافىء الخدَرِ
ولا تـرنم مـلاّح بأغنيـةٍ إلا وضجت أعانى الغوص في فكرِ

---

(١) مبارك بن سيف آل ثانى : أنشودة الخليج ص ١٧ - ٣٤ - الدوحة سنة ١٩٨٤ ، الطبعة الثانية . انظر ترجمة عنه ص ٢٦ .

(٢) ولد غازي عبد الرحمن القصيبي في الأحساء سنة ١٣٦٠هـ /١٩٤٠م ، وانتقل مع عائلته للبحرين وسنه ٥ سنوات ، وأكمل فيها دراسته الابتدائية والثانوية ، ثم حصل على ليسانس الحقوق من جامعة القاهرة وعلى الماجستير فى العلاقات الدولية من أمريكا ، والدكتوراه من لندن سنة ١٩٧٠ ، وعمل بالتدريس الجامعي والعمل الإداري والدبلوماسي . أحب الأدب ، وبدأ كتابة الشعر بـ (ديوان أشعار من جزائر اللؤلؤ) سنة ١٩٦٠ و(معركة بلا راية) سنة ١٩٧١م و(أنت الرياض) سنة ١٩٧٨ ، وكتب مقالات وسيرة شعبية فى ذكرى أخيه نبيل . وأكثر شعره جاء تعبيرًا عن الوجدان الذاتي والجمعي معا ، والمزج بين الحس (الرومانسى) والاتجاه (الواقعي) و(الرمزي) .

راجع الطائي (عبد الله محمد) الأدب المعاصر في الخليج ٢٣١ - ٢٣٨ - القاهرة سنة ١٩٧٤ مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ؛ عبد الله آل مبارك الأدب العربي المعاصر : ٣٥ ؛ عبد الكريم الحقيل : شعراء العصر الحديث فى جزيرة العرب ١ /٢٦٢ ؛ مجلة الفيصل عدد ٧ - السنة الأولى سنة ١٩٧٧ ، الدكتورة نورية الرومي : الحركة الشعرية في الخليج العربي بين التقليد والتطور ٣٨٤ - ٤١٦ .

(٣) القصيبي الدكتور (غازي عبد الرحمن) ديوان : أشعار من جزائر اللؤلؤ : ٧ .

خليجُ . . يا موجةً بيضاءَ تنقلها أصابعُ الشوق من قلبي إلى بصَرى
أعيذ وجهك أن تغزو ملامحه رغم الغواصفِ - إلا بسمةُ الظَّفـــــــــــــــــــــر[1]

ومثل قول (أحمد محمد الخليفة) :

أنت يا درة الخليج عروسٌ بل ربيعٌ من الشَّذى والورودِ
كل ما فى ثراك للعينِ والقلـ ـب ، فجودي عليهما ثم جُودي
اسْلمي يا (أُوالُ) باركَكِ اللـ ـه ووقاكِ من نِكالِ الحقُود[2]

ومثل قول محمد الفايز : -

وطني وفيك من النجوم سموها ومن العروبة روحها القهار
غنيت فجرك والظلام يشدني شدًا ، وتعصر أضلعي الأكدار
يا ساحل الفيروز حيث سفينه ملء البحار كأنها الأقمار
إيه رمال الشَّط أي غمامة قد فجرتها تحتك الأقدار
فكأنما بك جنة مخبوءة وكأن فجرك فى الثرى نوار[3]

إلى غير ذلك مما جاد من شعر وطنى استلهم فيه الشعراء الخليج في شعر الحنين والغربة .

كما تعلق بالمآثر التاريخية وبالرموز التراثية ، وتناولها في إبداعاته ، وهي رموز تاريخية متعددة الجوانب سواء ما كان منها أسطوريًا خالصًا أو واقعيا . . وفي تناوله

---

(١) القصيبي الدكتور (غازي عبد الرحمن) معركة بلا راية ٨٦ - ٩٠ ، والقصيدة على البحر البسيط (مستفعلن فاعلن ٤ مرات) . ووشوش المحار : همس بصوت خافت وبكلام لا يفهم . والخدر : كل ما واراك من بيت ونحوه والستر .

(٢) الخليفة (أحمد محمد) من أغاني البحرين ٥٥ ، والقصيدة على (البحر الخفيف) (فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن) مرتين .

(٣) محمد فايز العلي : النور من الداخل ٢٠ - الكويت سنة ١٩٦٦ ، والقصيدة علي (البحر الكامل) متفاعلن ٦ مرات .

لتلك الرموز لا يقف عند حد عرض الأحداث والأماكن والشخصيات بقدر استلهامه للرؤية التاريخية ، واستيعاب مغزاها ودلالتها . فالغاية ثَمَّ أبعد من مجرد سرد ظواهر الماضى ، وتطورها تطورًا عاديا في سوق الوقائع . والتاريخُ يوظَّف لبواعث ومبررات تهدف لتقويم الوقائع ، وإبراز القيم ، والاقتراب من المغزى النفسى للحدث ذاته ، وإحياء المواقف ، وتوسيع دائرة الرؤى[١] .

وباستحضار مؤثرات التاريخ بما فيها من تراث يمزج بين الأسطورة والواقع المعاش يتشكل تيار إرادى واعٍ ومستوعب ، لكل وقائع الماضى ، وتيار لا إرادى يستشف ما وراء الوعى ، ويستمد من الرواسب الماضية ويستوحى الظلال النفسية واللاشعورية ؛ فاختلطت صور الحياة الواعية بغيرها مما فى اللاوعى ، وانعكس ذلك فى أدبهم وفكرهم واتجاهاتهم الفنية . ودوافع هذا المنحى هو معاناة الغواصين ، وما يقابلونه من مصاعب هي في ذاتها أخطار تتجاوز الواقع إلى تطور أسطوري عجيب عايشه الغواصون ؛ وكانت هذه المصاعب التي تفوق حد الخيال إفرازا لبيئة الغوص مما التصق بوجدان الجماعة فى رقصات شعبية ، وفي حكايات ونوادر للخيال فيها نصيب كبير « كرقصة (المراداة) التي تستقبل النساء بها على ساحل البحر أسود البحر العائدين . . وهن يرددن الأغاني والأهازيج . . وكالمواويل التي يرددها الغواصون في عرض البحر ، وغيرها من الفنون التى ارتبطت بهذه الملحمة المأساوية . . »[٢] .

وكأن حياة الغوص ضرورة فرضها النشاط التجاري لتسويق اللؤلؤ ، وأوجبتها ظروف المعيشة الشاقة للخليجين الباحثين عن لقمة العيش ، ومن ثم عادت تجارة اللؤلؤ على (المقسمين) (والطواشين) بالمال الوفير في حين ارتدت بالفقر والحرمان على العاملين فيها بكل ما أدت إليه تلك الحياة من آلام نفسية وأمراض

---

(١) راجع آل مبارك الدكتور (عبد الله) : الأدب المعاصر فى الجزيرة العربية ٩٢ وما بعدها .
(٢) الهاشمى (علوي) ما قالته النخلة للبحر ص ٢٩ ؛ وانظر : فنون شعبية لراشد العريفي ، البحرين ١٩٧٣م .

جسدية وشقاء بحثا عن رزق يطعم جائعًا أو ثمن خرقة تستر عريانا على نحو ما يصوره (محمد الفايز)[١] فى استرجاعه لهذه الالام :

أعد ذكر غواص تهادى لقاعه كأن به - رغم العرا - عالمًا أرقى
سرى والدجى كالموج ينصب فوقه ومن تحته الآفات سدت له الطرقا
نضالًا إلى أن يملأ الفم خبزه وتكسى جسوم لم تجد فوقها خرقا

أو على نحو قوله[٢] :

مررت بالشاطيء الغافى ورملته والصخر في الفجر أستوحيه أنباء
عن السفائن والإبحار عن نغم لـ(ناهم) يتقفى الريح والماء

أو على نحو قول (عبد الله القيسي) : -

هكذا فتى (جيكور) وأبنها الحبيب
سفينة بلا شراعٍ تهيم فى الخليج
(نهامها) كلامه وداع غناؤه نشيج
رباه.. إن كان الدواء مكانه أعمق أعماق البحار
فهب لنا تجارب الألى كم حصدوا المحار[٣]

ومثال آخر يصور فى أسى (رومانسي) تشف عنه أبيات (عبد الرحمن رفيع) :

نحن عشاق الدياجى حُزننا حزن عميق
حزننا هذا ورثناه عن الماضى السحيق
فإذا أبصرتنا فى الليلِ مرة

---

(١) محمد فايز العلي : النور من الداخل ٩٩ - الكويت ١٩٦٩ مطبعة حكومة الكويت . والقصيدة من (البحر الطويل فعولن مفاعلين) ٤ مرات .

(٢) محمد فايز العلي : رسوم من النغم المفكر ٣٥ ؛ مجلة الدوحة فبراير سنة ١٩٧٦ ص ١٢٢ . والقصيدة من (البحر البسيط مستفعلن فاعلن) ٤مرات .

(٣) جيكور إحدى القرى في لواء أبي الخصيب بالبصرة وتقع علي نهر (أبو فلوس) وغالب سكانها من آل (السياب) . والنهام غناء جماعى من أهازيج الغوص تشترك فيه الأكف بالتصفيق مع الطبول .

نرتدي ثوبَ المسرَّة
لا تلُمنا يا أخا القلبِ ولا ترُث لنَا
فلقد كان قناعًا يستر الوجه الأصيلا
نحنُ لا نفقه غير الحزنِ شيئًا
فإذا يومًا ضحِكنا
أنكرتْ أنفسنا ما قد فعلْنا[1]

ومن الواضح أن شعراء كثيرين استغرقهم الماضى فعاشوا أحداثه ومرارته حتى لم يلتفتوا لحاضرهم قدر غيابهم فى أعماق الماضي ؛ فعبروا عن وقع أحداث الطبيعة وقسوة الحياة ومشاق النزول فى أعماق الخليج وبين ظلماته . وهذا التعبير كان له أثره على (وجدان الفرد والجماعة) حتى صار (الخليج) رمزًا للثراء والجاه والسعادة لثلة ، ورمزًا للفقر والذل والأسى للسواد الأعظم في آن واحد ؛ فالبعض يسعد ويغنى وهم مستريحون ، والغالبية تعرى وتمرض يموتون وهم يكدحون .

ومثل هذه القضايا تلازم فكر الشعراء مع كل معاناة وموقف ؛ فالخليج كما يرى (السياب) عجيب فى تصريف الأمور ؛ إنه (واهب) المحار واللؤلؤ ؛ أي الثراء والجمال ؛ و(حاضن) لخير الطبيعة ، فَيُثرى ذوو الحيلة والطمع والنهازون للفرص ، والمستغلون طيبة قلب الضعفاء . وهو فى الوقت ذاته (واهب) الردى (وموزِّع) الدمار والخراب وباعث المرض والفقر للغواص يقول :

أصيح بالخليج . . يا خليج
يا واهب اللؤلؤ والمحار والردى
فيرجع الصدى
كأنه النشيج[2]

---

(١) رفيع (عبد الرحمن) أغاني البحار الأربعة ٣٣ - ٤٤ بيروت سنة ١٩٧٠م . دار العودة ، والقصيدة على تفعيلة (البحر الرمل) فاعلاتن .

(٢) النشيج : الصوت المتردد فى الصدر ، وتردد البكاء من غير انتحاب .

يا خليج . .
يا واهب المحار والردى
وينثر الخليج من هباته الكثار
على الرمال رغوة الاجاج والمحار
وما تبقى من عظام بائس غريق
من المهاجرين ظل يشرب الردى
من لجة الخليج والقرار[١]

وقد أحال هذا العالم المائي الواسع حياة الغواصين للخوف وللشقاء ، وفرض عليهم أن يمسوا ويصبحوا في معاناة من الظلمة والمرض والفناء ؛ إنه قاس وغدار وظالم ، إنه قبر الرجال : ولذا فالشاعر يخاطبه مرة خطاب حزين متألم كأنه يقول له : دعك يا خليج من هذا البلاء وكفاك ظلما وحسبك قهرا للرجال : -

إيه يا ماءَ الخليجِ
ويا قبرَ الرِّجال
ظالمٌ أنتَ وجبار وغدَّار وقاسى[٢]

ومرة أخرى يعود للحديث عن الخليج بوصفه صدى الذكريات وموطن السعادة للأحبة ، ومصدر الرزق ، وبوابة التاريخ وحارسه الأمين ، وهو الذى صمته محبة ، وفى حالات أخرى الغدر ، منه جبلة وطبيعة :

كم كنت يا شط الخليج ملاعبًا تهفو إليك الليلة القمراء

---

(١) الحاوي (إيليا) بدر شاكر السياب شاعر الأناشيد والمراثى ١ /٨٨ - ٨٩ بيروت - دار الكتاب اللبنانى . د . ت . والنص من قصيدة السياب (أنشودة المطر) الجزء السادس وهى قصيدة معتمدة على نغم التفعيلة ؛ تفعيلة (البحر الرجز مستفعلن) فى أجزاء وتفعيلة (البحر المتدارك فاعلن) فى أجزاء أخرى .

(٢) آل ثاني (مبارك بن سيف) الليل والضفاف ٣٩ - ٤٠ والقصيدة من الشعر المحدث المعتمد على وحدة تفعيلة (البحر الرمل) فاعلاتن موزعة على الأسطر توزيعا متباينا . وإيه : اسم فعل للإسكات والكف بمعنى حسبك وكافيك .

أنظـر هنـا التـاريخ تحت أديمه ... لـو أن تـدق الأرض والصمـاء
فى شطـه تجنـى الثمار عديـدة ... والتُمر فاكهـة بـه وسبـاء
يا حارس التاريخ هـل أخبرتنـى ... فـعلى رمـالك ترقـد الأنبـاء
بوابـة التـاريخ أنت وشطـه ... أنت الممـر ، وتـارة مـرساء
يكفيك ذكـرًا أن فيك معالمًـا ... فكـأنها فـوق الثرى أضواء
يـا درة تسعـى لجيـد جميلـة ... تبـا لـدر سال فيـه دمـاء
لولاك - يا بحرٌ - لما شقيت به ... روح ، ولا سمعت لها أصداء
فالصمت عندك - يا خليجُ - محبة ... والغـدر عنـدك شيمـة وهـواء[1]

وجوه على ضفاف الخليج :

حياة الإنسان العربى فى شرق الجزيرة تحكمت فيها ظروف البيئة وطبيعتها : فدارت حركته فيها حول عالمين مختلفين يشده كل منهما إليه بما يجود به من خصوبة ونماء ورزق ؛ فبيئة البادية والنخلة والجمل تجذبه نحوها بسكونها ورتابتها واستقرارها ، وعالم البحر والسفينة والمحار واللؤلؤ يغريه بالحركة وركوب البحر والتنقل ، وهاتان البيئتان كانتا تحكمان استقراره وسكونه أو حركته وانتقاله ، غير أن مهنة الغوص لم تكن بالأمر الهين أو اليسير مثلما هو الحال فى حياة البداة ورعاة الأنعام ، ومن يألفون حياة النخلة والجمل ؛ فمهما قست طبيعة الصحراء ، ومهما امتدت به الامتداد اللانهائي ، وأخذته ظلمة ليلها ، ومشاق نهارها طلبًا لقطرة ماء أو لمة عشب يسعى البداة لها ؛ فتلك حال أقل هوانًا لنفسه ، وإيلامًا لجسده من حياة البؤساء المقهورين ممن فرضت عليهم حياتهم كسب أرزاقهم مما يجود به البحر من لحم طري ، ومما يستخرجون منه حلية يبتغون بيعها رزقًا حلالًا . وما أكثر ما صور الشعر ملامح (وجوه على الشط) :

---

(١) آل ثانى (مبارك بن سيف) : أنشودة الخليج ٢٥ - ١٢٠ .

أيام كنت أعيشُ في الأعماق أبحث عن محار

.....

أيامَ كنتُ بلا مدينة
بلا يدٍ تحنو عليَّ ولا خدينة
إلا حبالِي والشراع[1]

إنها لوحات الحزن والألم تصور حالات عاشها الغواصون فى لحن حزين ، لحن يعبر عنه (على عبد الله خليفة) بمثل قوله :

.....

يا أصداقائى الطيبين
هذا الذى قالته أصداء السنين
واهتزت الأوتار فى سمع الدهور
لصرخة (اليامال) في اللحن الحزين
حناجر عانت
مذاق الملح والطين ، وضجت بالأنين
ماذا تقول ؟
إنى سمعت الجوع والآلام فى صرّارها
يعلو الطبول
فى وحدة شعرية عبر البحار
ورأيت أحزان الرمال على الشطوط
بلا دموع
وبلا انكسار
يا أيها النجم المضمخ بالعطور

---

(١) محمد الفايز : النور من الداخل ١٧ .

أما رأيت فتى البحار[١] ؟

ولست أدري أنقل (علي عبد الله خليفة) نبع الشعر وما يجيش في النفس وتنفعل به الأحاسيس إلى سفن الغوص والخليج والشراع والظلمة ؟ أم نقل حياة الغوص بما فيها من مرارة إلى القلب موطن الانفعال العاطفي فكانت هذه القصيدة مثالًا حيًا للبيئة ولوجوه على الشط أعظم ما كانت تعيش عليه ، ويسد رمقها ملح وطين أو بعض تمرات .

زادُنا تمرُ نُخَيْلاتٍ عِجاف
عافَ فيه الدهرُ وطرًا . . ثم عاف
بعد أرز قدره قدر الكفاف[٢]

وجوه على الشط حزينة :

إن ملامح الحزن كانت سمة واضحة تشكل قسمات إنسان الغوص ، ترسم الأحزان على قسمات وجهه وشكله بعد أن ضاق بها صدره ؛ فقلما فارق الحزن وجهه ؛ لأنه حزن دفين متأصل عبر مئات السنين . وإن ما يبدو من ابتسامات لا تعدو أن تكون شيئًا مصطنعًا يداري الحزن العميق ؛ « حزن عشاق الدياجى الذى ورثه جيل عن جيل ، لا يزيله قناع المسرة ؛ فنفوسهم تأبى الفرح ؛ لأنها جبلت على الحزن »[٣] .

ولقد مر على سكان الخليج حينٌ كان الحصول على لقمة العيش في أعماق الخليج هو المهنة الوحيدة ، وكان الغواصون يعودون من الغوص وعليهم الديون ، وكان اللؤلؤ يسوق عند الطواشين بأبخس الأثمان . واستمر صراع الغواص فى

---

(١) الطائى (عبد الله بن محمد) الأدب المعاصر فى الخليج العربي ٦٧ - ٧٠ من قصيدة (بذور الأرض الواهية) . والقصيدة على تفعيلة (البحر الرجز) (مستفعلن) . والياما ل : نداء يكرره النهام فى معظم أغانى الغوص .

(٢) علي عبد الله خليفة : أنين الصواري ٤٥ - ٤٦ والقصيدة على (البحر الرمل فاعلاتن فاعلاتن فاعلن) .

(٣) عبد الرحمن رفيع فى قصيدته « نحن عشاق الدياجى » ص ١٦ .

البحر ومع الظلم عبر أقنعة تاريخية تتصل بحياة البحر . وإن جراح الغواصين تكمن فى تسرب اليأس إلى نفوسهم ؛ فلا يدركون معنى طيبًا للحياة ، وقد عبر عن أحاسيسه أجل تعبير وأصدقه علي عبد الله خليفة في نحو قوله :

أُحسُّ الليـــلَ يـــا أمـــى تباريحًـا مـن الأحـزانِ والألم
أحس بأننـــــــــى شيء تغلغل في متاهِ الليل كالظلم
وأن الآه تـــــــــعصِرُني وتحرق في دمي فيْضًا من الكلم
أنا فى دمعةِ المحزون يا أمـي أموتُ . . أعيشُ فى إرهاقِ مكدود
وفى رعشَاتِ مسكيـــــــن يقاسى البرد فى الليلات بالعدم[1]

لكن من أجل ماذا يُقْبَرُ الرجال ؟ ولِمَ هذا العناء والشقاء ؟ أليس من أجل البحث عن ثمن كسرة خبز بملح الخليج ؟ وأليس من أجل « هذه الكتلة الكلسية (اللؤلؤة) يفادى الكثيرون من رجال الغوص بصحتهم وبأرواحهم ؛ فأكثرهم يُرعفُون حينما يُرفَعُون إلى وجه البحر ، ومنهم من يصابون بداء الرئة ؛ ذلك لأن الغوص يلزمه مع الجرأة والخفة نفس طويل »[2] ؟

ومع ذلك فليت مشاكل الغواص تدفن أو تطوى بعد هلاكه ؛ فالأمر يهون . إذ أن المصائب تزداد . ويظل أبناؤه وزوجته يتوارثون رواسب الماضي بعد أن ترك عائلهم تركة مثقلة من ديون عليهم أن يؤدوها عنه ؛ فتبقى المعاناة يحملها الأبناء عن الآباء و« كان العمل فى هذه الصناعة شاقًا ومؤلمًا وكافرًا . ولم تكن طبيعته الشاقة والكافرة تبدأ وتنتهي في القيام به كعمل ؛ إنما بالعلاقات الاجتماعية التى أفرزها على مدى قرون من الزمان ؛ فقد كانت علاقات هذه الصناعة الاجتماعية هي التى تضع العبء على الغواص فوق عبء العمل المجهد ؛ حيث

---

(١) خليفة (علي عبد الله) أنين الصواري ١١ - ١٢ . والقصيدة على (مجزوء البحر الوافر) مفاعلتن ٤ مرات .

(٢) الريحاني (أمين) ملوك العرب ٢٨٨ . والرعاف كغراب : خروج الدم من الأنف ، وحتى الدم نفسه رعاف ، ورعف الدم كسمع : سال .

إنه لم يكن ليخرج نتيجة عمله في آخر موسم الغوص إلا بالفتات لإطعام نفسه وعياله »[١] .

وعلى الرغم من كل هذه المعاناة فأهل المهنة يبدون أحيانا وهم فى حالات من الرضا والسعادة والقوة ، غير وجلين ولا هيابين للمواقف . ولعل (فاضل خلف)[٢] أشار إلى ذلك فى خطابه لبلده .

يجوبُ بنوك البحر هذا مغرِّب ... يسطَّـــــر أمجادًا وذاك مُشرِّقُ
وذلك غوَّاصٌ له القاع مربـع ... فلا هو خوار ولا هو يغْرق
يروع فى قاع البحار خلائقًـا ... شديدة بأس وهو بالهول محدِق
فلا الشامِخات الصاخباتُ تُخيفهم ... ولا زمهِير العاصفـات مُعـوق
ولا عالم المجهول يأسِر عزمَهم ... إذا احلولك الليل البهيم المؤرقُ
جبابر بحر ، بلا مـلائك رحمةٍ ... وأجنـاد صدق للعـلا تـتشوَّقُ[٣]

أما المرأة في ظل مجتمع الغوص والبحر فكانت تمثل جهدًا وتضحية في كل المواقف ، كان تطوى شبابها وجمالها عندما تقتضي طبيعة الحياة أن يغيب الزوج عن البيت لمدة تصل لأكثر من أربعة أشهر ، وكانت تقف مع زوجها الوقفة التى تتجاوز مجرد الأمومة ورعاية البيت إلى تحمل المسئولية بل وقامت فى أنحاء الشاطىء خاصة جزيرة (فيلكا) بأدوار اجتماعية ، وأدت مشاركتها في الأعباء

---

(١) الهاشمي (علوي) ما قالته النخلة للبحر ؛ الشعر المعاصر فى البحرين ٢١ - بغداد سنة ١٩٨١م دار الحرية للطباعة .

(٢) شاعر كويتي معاصر ولد سنة ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م تلقى تعليمه الثانوي فى مدارس الكويت ، ثم عمل مدرسا من سنة ١٩٤٤م ثم مترجما ثم سافر إلى لندن سنة ١٩٥٨ ودرس الفنون والآداب . أحب الأدب فكتب مجموعته القصصية (أحلام الشباب) سنة ١٩٥٧ تصور جانبا من واقع الكويت وبعض ما صاغه من القصص العالمى ، وكتب عن الأدب والأدباء ، ثم اتجه للشعر فرثا صقر الشبيب سنة ١٩٦٣ ورثا فهد العسكر والسياب ، وقال الشعر في الوطنيات والجوانب الإنسانية والعلم والوصف ، وكتب عن عبد الله الصانع الطائى (عبد الله بن محمد) الأدب المعاصر في الخليج العربي ص ١٢٣ - ١٢٦ . الزيد (خالد سعود) أدباء الكويت في قرنين ٣ / ١٨٧ - ٢٨٧ .

(٣) فاضل خلف : على ضفاف مجردة : ١٤٦ - الكويت المطبعة الحكومية د . ت .

إلى نوع من الاستقرار فكانت حالات الطلاق محدودة[١] . و« تذكر بعض المصار التاريخية الحديثة أن المرأة قد شاركت في الغوص بنفسها إلى جانب الرجل ، عندما كانت تعوزها الحاجة والفقر إلى ذلك العمل الشاق والخطير . . وكان ذلك في بعض مناطق الخليج ، ولا أعرف إن كانت البحرين واحدة من هذه المناطق التي مارست فيها المرأة مثل هذا العمل إلا أنه ليس مستبعدًا أن تدفع الحاجة والعوز إلى مثل ذلك فى البحرين وغيرها ؛ لأن الغواص عندما يموت يطالب أهله بديونه ، ويباع بيته ، وتزوج امرأته إلى (الدائن) ، ويؤخذ أبناؤه رهينة في بيته حتى سداد الديون »[٢] وقد ألمح الشعراء لهذه المعاناة على نحو قول (علي عبد الله خليفة) :

يالعملاق طعين الكبرياء
بعض إنسان على الشاطىء ملقى كالرفات
عافه البحر ، وأردته قوانين الطغاة
بعد أن عاش سنى العمر مصلوب الحياة
بين أفواه تنادى
ومناد : هات من دينك هات[٣]

وإذا كان صيد اللؤلؤ هو المهنة الرئيسية لغالب أهل الخليج ؛ إذ قد بلغ عدد السفن العاملة فيه سنة ١٩٠٧ ما يصل إلى ثلاثة الاف وخمسمائة سفينة (٣٥٠٠) ، وزاد عدد العاملين عليها عن خمسة وستين ألف نسمة (٦٥٠٠٠)[٤] ، وكان مصدر الربح الوفير للطواشين قبل مرحلة (النفط) . فلولاه لانهارت حياتهم الاقتصادية في بعض فترات القرنين التاسع عشر

---

(١) محجوب الدكتور (محمد عبده) التغير والثبات فى تقاليد الأسرة الكويتية ص ٢٦٥ - ٢٨٢ سلسلة ندوات التخطيط لدراسة التراث الشعبى ، قطر سنة ١٩٨٥م .

(٢) الرميحى الدكتور (محمد) البترول والتغير الاجتماعى ٣٧ .

(٣) علي عبد الله خليفة : أنين الصواري ٧١ - ٧٢ .

(٤) لوريمر (ج .ج) : دليل الخليج : لقسم التاريخ ٦ /٣٢٥١ - ٣٢٥٦ الدوحة د . ت .

والعشرين ، وتقطعت بهم أسباب الحياة . فكان مصدر الرزق الوحيد المتاح آنئذ ؛ على الرغم مما كان يلازمه من مشاق .

واكتسبت مهنة الغوص على اللؤلؤ أهمية فائقة في النشاط الإقتصادي ، وفي العلاقات الإجتماعية والتقاليد والعادات وفى إبراز المعانى الإنسانية والنفسية والوطنية والدينية ، وفي خلق مجتمع ساحلى له سمات وطباع خاصة ، وأفادت في العلاقات الإجتماعية ، وخلقت من المرأة العربية شخصية أخرى تجمع إلى جانب الصلابة والتحمل وتولى مصلحة الأسرة إحساسات فياضة متدفقة لحب الزوج والمحافظة على كيان أسرته واستمرار حركتها : فأوجدت لونا من العواطف الإنسانية الشفافة ، والقادرة على تجاوز المحن في صبر وتماسك ، وضبط الانفعالات العاطفية ، ففى مجال النشاط الأقتصادى كانت حركة مزدهرة لتجارة الخليج كونت علاقات تجارة وتوثقت صلات أهل الخليج بالشرق والغرب بإنفتاح تجارى ؛ فقد بلغ إيراد ما صدر من لؤلؤ عام ١٨٣٣ ثلاثمائة ألف جنيه استرلينى ، وفى عام ١٨٦٦ بلغ إيراد ما صدر أربعمائة ألف جنيه استرلينى ، ثم تجاوز هذا الرقم إلى قريب من المليون جنيه والنصف مليون في بداية القرن الميلادى العشرين عام ١٩٠٥م (١٫٣٣٤٫٣٣٩)[1] . ويشير الخط البياني (الموضح بالرسم المرفق لذلك) .

على أن مؤشرات هذه الأرقام توضح بجلاء القيمة الاقتصادية الأساسية لموارد حركة الغوص التي تتطلب مشاركة أيد كثيرة . وضحايا المهنة السواد الأعظم من الغواصين المقهورين البائسين المطحونين بما ينتابهم من شقاء وفقر ومرض وفناء .

والواقع أن مهنة الغوص تجاوزت الجانب المادى وفاقت الهدف المحدد من مجرد البحث عن اللآلىء التي تجلب لقمة العيش إلى هدف آخر غير محدود ، وإلى

---

(١) المصدر السابق ، نفسه ٦ / ٣١٩٠ .

ملحق رقم ١

رسم بياني يوضح تجارة اللؤلؤ ، ودخل منطقة الخليج منه خلال القرن الميلادى التاسع عشر ، وحتى الثلث الأول من القرن العشرين .

لوريمر (ج . ج) دليل الخليج. - القسم التاريخى ٣٢٥١/٦ ، ٣١٩٠

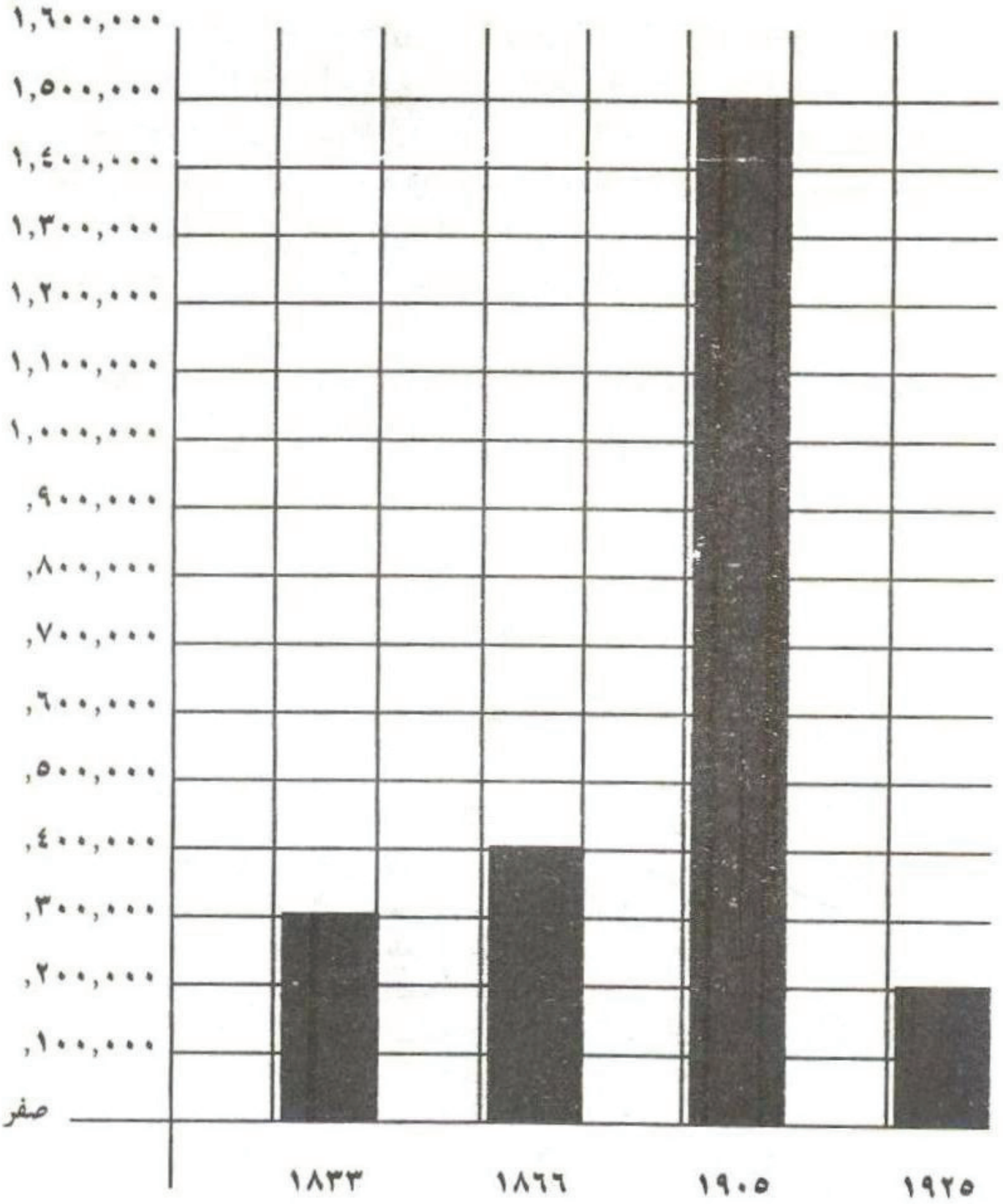

غاية أسمى من ذلك كله ، وإلى معان نفسية عظيمة ، وإلى البحث عن المجهول ، والسعى وراء اكتشاف أسرار الحياة والموت وفك رموز الكون الغامض والطبيعة المتسعة والمخيفة . ولو كان هدف الغوص هو الوصول إلى اللآلىء لكان الأمر هينا ؛ ولكنه تعدى ذلك وفاقه إلى محاولة إثبات (الذات) الإنسانية ؛ والأنتصار على المجهول وعلى الغيب ، حتى غدا (رجل البحر) بطلا متقدما في حركة متجددة ومتغيرة وصار كما يرى (أرنست فيشر) « سيد عصره ومصيره »[١] .

بل إن حياة الغوص - في ذاتها ، وبما فيها من مخاطر - تعد لونا من الصراع المستمر من أجل البقاء والصمود والتصدى للأخطار بحثا عن المجهول ، ومواجهة لقسوة الطبيعة في قاع الخليج وإنهاء لصراع لروح ، وتحدى الأخطار والأهوال ، وأنتصار للإرادة الإنسانية في العمل في ظروف قاسية غير مستقرة .

وهذا ما كانت ترمز له الأسطورة (السومارية)[٢] للبطل (جيلجامش)[٣] ؛ ذلك البطل الأسطورى (البابلي) الذي انتهى إلى الخليج

---

(١) فيشر (أرنست) : ضرورة الفن ص ٧ ترجمة أسعد حليم ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر .

(٢) تُعد اللغة (السُّومارية) فريدة ، لأنها لا تنتمي لأي جذور لغوية معروفة ، ظهرت كرموز للأشياء ، ثم تحولت للخط المسماري ، وشاعت قبل الميلاد بزمن بعيد فيما بين النهرين ، ثم ما لبثت أن اقتصرت على الطقوس الدينية بعد أن تميزت عليها اللغة (الأكادية السامية) وسجلت أسطورة (جيلجامش) باللغتين . عبد النور (جبور) : المعجم الأدبي ٤٢٤ بيروت ١٩٧٩ ، دار العلم للملايين .

(٣) من الملاحم العراقية القديمة مجهولة المؤلف ، وترد لأزمان سحيقة قبل الميلاد ، وعرفت أولا باسم (من رأى كل شيء) ، وتدل التسمية على أن (جيلجامش) أدرك أمورًا كثيرة حينما كان ملكا على (أروخ) إحدى مدن ما بين النهرين ؛ فقد كان حاكما قاسيا مستبدا بالرعبة ، يدفع الشباب للقتال ، ويستخرج الفتيات لمجالس اللهو ، مما أدى لنقمة الرعية ، وتمنيهم أن لو أرسلت الآلهة بطلًا ينقذهم منه ، واستجابت الآلهة ؛ فبينما كان (جيلجامش) يبحث فى أعماق الخليج عن (زهرة الخلود) ظهر له (أنكيدو) على هيئة مخلوق جبار يعايش الوحوش فى البرارى ، ويشاركها عاداتها الوحشية .

وحين دخل (أنكيدو) (أروخ) ليمنع جبروت (جيلجامش) إذ بالمدينة تغير من طباعه ؛ فيتحول من طاغية مدمر إلى محب صاحب قلب رحيم ، ويفقد وحشيته ، ثم يلتقى مع (جيلجامش) فى الخليج ، ويتصارعان أول الأمر ، ويكاد (جيلجامش) أن يهزمه ، لكن الكره عند (أنكيدو)=

باحثًا في أعماقه عن (زهرة الخلود) ، وهى لؤلؤة من لآلئه ؛ فيقوم بمغامرات بطولية كثيرة يلتقي خلالها بـ (أنكيدو)[1] الجبار ، فينتصر عليه (جيلجامش) ، ثم يتصادقان حتى مات (أنكيدو) ، ويفقده يخسر (جيلجامش) أعز رفيق في وقت تغلبت عليه (الحية) وسرقت اللؤلؤة منه لتحرمه الخلود . ومع ذلك فلا يتسرب اليأس إليه أبدًا ، ولا تفتر عزيمته بل يستمد من هذا الموقف قوة جبارة وعزيمة صادقة ، وأملا في البقاء وإثبات الذات ، والانتصار على الشر ، فيمتلىء ثقة وشعورا بالظفر على نحو ما صوره (مبارك

= يتحول حبا والعدواة صداقة ، ويشتركان فى أحداث الحياة والمغامرات ، وينتصران فى أولى مراحل الصراع على (هومبابا) حارس غابة الأرز الذى كان مخلوقا عجيبا ضخم الجسم صوته رعد وكلامه حمم نار .

وحين عاد (جيلجامش) إلى (أروخ) منتصرا نقم على (عشتار) إلهة الخصب والنماء وسيدة المدينة ، فترسل الآلهة ثورا لينتقم منه ؛ فحول الثور النماء قحطا ، وشرب النهر حتى جف وهلك كثير من أهل (أروخ) . غير أن جيلجامش) توصل مع رفيقه (أنكيدو) إلى طريقة لقتل الثور ، وبذا حمى المدينة منه وانتصر على (عشتار) ربة المدينة الثائرة . وما كاد الأمر يستتب حتى هلك (أنكيدو) وهم ناقم على المدينة التى أفقدته جمال وحشته الطبيعية ورحل (جيلجامش) يبحث عن طريق الخير الدائم (زهرة الخلود) الموجودة في أعماق الخليج وبعد أن وجدها أراد العودة بها ليفيد منها أهل المدينة ، وبينما هو عائد بها نزل يستحم في جدول فجاءت الحية وسرقت (زهرة الخلود) فانتزعت بذلك أمل الخلود والوجود ؛ لكنه لا ييأس ، فيمضى باحثا عن سر الحياة والخلود دون توقف أو يأس .

والأسطورة ترمز لمدى قدرة الإنسان في التغلب على أقوى الحيوانات جبروتا وضراوة ، وإمكان الإتيان بالعجائب والأمور الجليلة ؛ على الرغم من سيطرة الآلهة على مصير الإنسان وعلى وجوده ، ويرجح علماء الميثولوجيا أن للأسطورة نوعا من الوجود الحقيقى وأن (جيلجامش) شخصية حقيقية حكم في أزمان غابرة قبل الميلاد ؛ لكن الحقائق اختلطت بالأساطير ، وراح خيال الرواة يتزيد فيها أمورا غريبة وأسطورية . وقد وضعت الأسطورة أساسا باللغة السومارية ، ثم أعاد (البابليون) صياغتها بعد أن غيروا فى محتوى سياقها ومضمونها .

انظر : عبد النور (جيور) المعجم الأدبى ٤٢٥ - ٤٢٦ . بيروت ١٩٧٩ .

(١) (أنكيدو) هو البطل الجبار الذى تحكى عنه الأسطورة معايشته واكتسابه صفاتها الوحشية ؛ لكن المدينة غيرت من طباعه بعد أن تحداه (جيلجامش) وانتصر عليه ؛ فتصادقا ، وبموت (أنكيدو) فقد (جيلجامش) أعزّ رفيق .

ابن سيف)[١] في همزيته (أنشودة الخليج)[٢] :

يا حارسَ التاريخِ هل أخبرَتنِى ... فعَلى رمالك ترقد الأنباء ؟
وتنامُ تحتضِنُ الحياةَ لو أنَّها ... - يا بحرُ - تصحُو : إنها لألاء
فلقد رَأتْ عيناكَ ألفَ حضارةٍ ... أسوارُهَا الدَّماء والغبراءُ
....
ورأيتَ (جيلجاميش) وهو مكابرٌ ... يحدوهُ وَجْدُ للخلودِ وداءَ
ويجوبُ قيعانَ (الخليج) بهمَّةٍ ... وهواهُ في (زهْرِ الخليجِ) بقاءُ
الأجل (عِشْتَارٍ) أرادَ خُلودَهُ ؟ ... الأجل (أنكِيدو) أم الخُيلاء ؟
حَبكت أساطيرُ الحياةِ حَواشِيًا ... قِيلتْ ، فما نُسيَتْ فهُنَّ إماء

وقد أوحت حياة البحر للغواصين برصيد من الأغاني يستهلمون منها المواويل والحكايات التي تدعو للفرح والتفاؤل ، وتطرد الخوف والتشاؤم الذي طالما سيطر على حياة الغواصين . ومع ذلك فلم تكن حياة الغوص حياةً شفيقة سهلة كحياة الناس الآخرين ؛ فالغواص يعيش بين الحياة والموت أربعة أشهر أو تزيد وسط الخليج ، وفى قيعانه الباردة ، وبين الحيوانات المتربصة به المفترسة له ، وبين مرض عضال قد يصيب جلده أو رئتيه فيضحى عليل البدن سقيم النفس ، ولربما أسلمه

---

(١) الشيخ مبارك بن سيف آل ثانى من الشعراء الخليجيين المعاصرين ، وهو شاعر قطرى في الأربعينيات حاصل على الشهادة الجامعية في العلوم السياسية ؛ وعمل مستشارا في سفارة قطر في القاهرة ، ويشغل الآن منصب الوزير المفوض في الخارجية القطرية . وهو شاعر رومانسي يقول الشعر العمودي والشعر المحدث ، صدر له حتى الآن (السراب) ١٩٧١م ، ثم (الليل والضفاف) ١٩٨٣م ثم (النورس والشراع) ثم (الفجر الآتي) ثم (أنشودة الخليج) ثم (ليال صيفية) .

(٢) آل ثانى (مبارك بن سيف) أنشودة الخليج ٤٩ - ٦١ قطر ١٩٨٤م الطبعة الثانية .

وعشتار : إلهة الخصب والنماء والحرب والحب لدى البابليين سكان ما بين النهرين وهى ابنة (آنو) و(أنيل) رديفة (عشروت) الفينيقية ثم (أفروديت) و(فينوس) عند اليونان والرومان . وأهم هياكلها فى مدن (أروك) و(أشور) و(نينوى) وهى نجمة الصبح والمساء معا . وعشتار إيحاء إلى زمن الخصب والنماء فى يوليو تموز عند البابليين .

ذلك لموت محقق ؛ فيرث ذووه إرثاء ثقيلًا من الديون . ومع ذلك فمجتمع الغوص كان يحاول التغلب على المشاق بخلق جو من السعادة ملؤه تفاؤل مشوب بالخوف والضياع من رحلة الصيف الحزينة ولطالما أرتفع صوت (النهام) وسط الأمواج :

ها نحنُ عُدنا نُنشِدُ (الهُولو)[1] على ظَهْر السّفِينة
من رحلةِ الصّيفِ الحزينة
ها نحن عدُنا للمدينة

ويعود من كتب له النجاه لينتظر قدره ولو بعد حين . وكان متوسط المفقودين والغارقين يتجاوز ثلث الجماعة على المركب . وتصور قصيدة (العودة الحزينة) للعدواني جانبا من الألم الممض الذي يلم بالأسرة حين تلتمس عائلها بين العائدين دون جدوى ؛ فترقب ظهوره في موجة آتية فتتداخل الأصوات ، ومنها الصوت المتردد من بعيد يطمئن الزوجة وليعلن أن فارس البحر سيبقى - مهما طواه البحر - شعاعا لا يخبو ، وأملا لا يضيع :

لا تهابى إن طَوانى البحرُ يوما في العُبابِ
وبكَى أهلى ، وعمَّ الحزن والرَّزءُ صَحابى
وغَدَت ذكراى تُثرى بينَ مدْح وِسبابِ
واستَرابت نَفْسُك الولهى بمعْيارِ الصوابِ

---

(١) الهولو : لغة الجيب ، وهو إيقاع لرفع شراع الجيب ، وهو بضم الهاء واللام ، قد تكون محرفة عن الأصل العربى (هيا بنا) وهو نداء للعمل يبدأ المنشد عندما يجرون السفينة للبحر فينبه البحارة بقوله (هى يا ملى) بكسر الهاء وإسكان الميم يقولها بصوت منخفض ؛ ثم يرفع صوته (هولو) ويكررون (هولو هولو) حتى يتوقف سحب السفينة ، أو التجديف .

الشملان (سيف مرزوق) تاريخ الغوص على اللؤلؤ فى الكويت والخليج العربى ٢ /٣٨٤ - الكويت ١٩٧٨م ، الطبعة١ .

الرفاعى (حصة سيد زيد) : الأغنية البحرية الكويتية مقال سلسلة ندوات التخطيط لدراسة التراث الشعبى مجلد ٢ /٥٥ - الدوحة ١٩٨٥م ، ط١ .

غَادري القومَ إلى الشاطيءِ من غير اكتئابِ
وانْصتى للموجِ يرمى بهُمومى ورغابِى
ويُناجيكِ بأشعاري وأحلامِ شبابي
إنَّ في الأمواج أسرارَ ذهابي وإيابي
لن يُذيب البحرُ منى غير شكّى وارتيابي
سوف أرتدُّ من اللُّج ، وأن طال غيابي
شُعلةً تقتحمُ الآفاق في ضَوء عِجاب[1]

على هذا النحو يتصور (العدواني) الغواص ، وقد لازمه أمل البقاء والخلود ، والعود شعلة تضيء الكون ، تنشر الخير ، وترد الغائب .

أما (على عبد الله خليفة)[2] فتصور قصيدته (بذور الأرضي الواهية) شكوى جماعية مما يعانيه الغواصون ، وما يتحمله الأهل ؛ فالمهنة قاسية ، لا تمسح دمع العيون ولا تزيل حزن النفوس ، ولا تحمى ظلام البيوت ، ولا تحمي صاحبها من ضياع محقق عندما يصاب في رزقه أو بدنه أو رئتيه أو عينيه . وقد امتزجت أفكار القصيدة في وحدة كلية تقوم على (التناقض) وتعتمد المخالفة ما بين نشيج الألم والبوس في بدايتها ؛ ونشيد الأمل والسرور في نهايتها ، وأختلطت صور البؤس والحزن الذي عاشت به الأيام قهرًا في البيوت ، وصورة (النهام) الضرير الباكى ، وقد كف بصره وتقيحت جروحه ، ولم يجد إلا الملح يسدها به ، وصورة الزمن الخؤون سارق قوت الصغار . . . اختلط كل ذلك بصور أخرى

---

(١) أحمد مشاري العدواني : أجنحة العاصفة ٢١٥ ؛ الزيد (خاد سعود) أدباء الكويت فى قرنين ٢ /٤٠١ - ٤٠٢ . والقصيدة من مجزوء (الرمل) المدور (فاعلاتن) ٤ مرات .

(٢) علي عبد الله خليفة من شعراء البحرين المعاصرين ، أتم دراسته الثانوية ، ثم أدركته حرفة الأدل فظهر شعره بما امتاز به من رصانة تكشف عن أصالة ، ومن جدة تدل على حداثة . صدر له أنين الصوارى ١٩٧٩م وأنين الصوارى إنما هو رمز لمعاناة البحارة .

انظر الطائى (عبد الله محمد) : الأدب المعاصر فى الخليج العربى ص ٢٣٨ - ٢٤٤ .

وردية مسعة بالأمل ، ومفعمة بالنماء « إنها صورة الحياة تعود من جديد في إشراقة الشمس وإطلالة القمر واختلاف الليل والنهار » وتنفس الصبح ، وهذا البريق يشع من مجرد الإحساس بالظلم الذي يولد الشجاعة ، ويحيي الإحساس بالأمل والانتصار على الصعاب :

يا بأسَنا الدامي على مرَ العصور . . .
يا أيّها البؤسُ الذي عاشَت به الأيامُ قهرًا في البيوت

إنه بأس شديد يسلب الأمل من قلب (النهام) بعد أن سلب النظر من عينيه .

وسمعتُ (نهّامًـــا) ضَريـــــ را يبكـي يـــذِرُّ على الجروح
مِلْحًـا ، ويصرخُ في السمـــا صَوتـا تصُر لـــه الضلـــوع
يـــا أيها الدهـــــرُ الخؤون يـا سارقًـا قـوتَ الجمُـــوع

على أن الإحساس بالظلم يولد في النفس معانى الشجاعة ، ويحيى آمال الأنتصار ، فيستجيب القدر ، وتبتسم الحياة ، ويزحف الفجر ، لأن الغواص أراد الحياة وقهر الخوف .

لا . . لن تمُوتْ . . فالشمسُ تُشرق من جديدْ
الكادِحون من الشعوبِ هم الحياة
والفجر آت . . . الفجر آت[1]

وتحمل أغاني البحر في رحلات الغوص - على الرغم مما يشويها من ألفاظ غير فصيحة دلائل عملية واجتماعية ونفسية ذات مضمون لجمع الهمم ، وإنجاز العمل ، وتسهيل التجديف وراحة النفس ورفع الروح المعنوية ؛ وزرع بذور الأمل في نفوس الجماعة . وكثير من أغاني البحر تحمل دلالات وإيحاءات تعبر عما ينطوى عليه الوجدان من حب وكره وفرح وحزن ورضا وغضب وسعادة وشقاء .

---

(١) خليفة (علي عبد الله) : أنين الصواري ٩١ - ٩٢ والقصيدة من مجزوء الكامل متفاعلن أربع مرات .

ومما يستأنس به في تأكيد هذا المعنى أن أحد (النواخذة) كان ينتظر حادثا سعيدا لزوجته التي تركها حاملا ؛ غير أن القدَر لم يمهلها فقد توفيت هي وطفلها أثناء الولادة ، ولربما علم بعض البحارة بالخبر من سفينة مارة بالبحر فأخفوه عن (النواخذة) ، ولم يجرؤ أحد على مفاتحته في خبر محزن وهو في وسط البحر . وحينما أتجهت السفينة من « مغاص إلى آخر أمر (النوخذة) بحارته بالتجديف ؛ فغنى (النهام) :

لى خلة خلخلوا عظمي وخلوني
شرْوى العِنب بالقدَرَ يا الخِل خلوني
لا هُم خذوني ؛ ولا بالدار خلوني

ظلّيت من عقبهم أجمع مراد وصبر
قالوا : تصبر ، قلت : ما لى صبر
بالله يا الرحمن ياللي عليه الصبر

خذوا حبيبى وبالحسرات خلونى

غير أن هذه الأغنية لم تصادف هوى في نفس (النوخذة) وتشاءم منها ؛ فأمر (النهام) أن يأخذ في أغنية غيرها مما يحفز على العمل ، ويبشر بالرزق ؛ فغنى (النهام) (زهيرية)[1] أخرى تصور الحزن والألم أشد من الأولى :

لي خلة[2] ذكرهم طعم الشهد بـالله
راحوا . . وأنا من عقبهم قمت ارتجي بالله
بالله يا مدمعي هات لى ثوب السقم بالله[3]

---

(١) الزهيرية : ما يتغنى بها على صوت المزهر بكسر الميم وهو عود يضرب به وهو أحد آلات الطرب والزهيرية بلدة ببغداد . وهو على البحر البسيط مستفعلن فاعلن ٤ مرات .

(٢) الخلة بضم المعجمة : الصداقة والمحبة التى تخللت القلب فصارت خلاله ؛ أي في باطن . والخلة : الصديق « يستوى فيه المذكر والمؤنث والجمع ، أما الخل بكسر المعجمة فيستوي فيه المذكر والمؤنث .

(٣) السقم بضم السين وفتحها مصدر سقم بضم المعجمة القاف : المرض والعلة .

لأني شربت مـــن الحميـــا راح
لا بالتجافي ولا بالطول شايف راح
جونى أحباب الي يعزوني ؛ وقالوا راح
راح الخلف واللي خلفوا ؛ قلت : الخلف بالله

ولما سمعها (النوخذة) ازداد ألما وإحساسا بحالته وخوفه على زوجته ؛ وأدرك مراد (النهام) فاتجه بسفينته إلى (الكويت)[1] بشعور الحزن والإحساس بفقد الولد وأمه .

ولهذه الحكاية التي للخيال فيها نصيب وللواقع نصيب جانب إيجابى ومعزى على أهمية الترابط ، وحقيقة الأتساق بين الغاية الترفيهية لأغانى الغوص والغاية النفسية والمضمون الاجتماعي بدلالات وإيحاءات خاصة حول أهمية الأنشودة في حياة الجماعة ، ومدى ارتباطها بما يتوقعه البحارة من خير أو شر ، ومن فرح أو حزن . وتلك طبيعة الحياة على ضفاف الخليج التي غدت منذ مطلع التاريخ ملاعب رفت فيها التمائم ، وانتشرت الحكايات في الليالي المقمرة لحديث السمار :

كم كنتَ - يا شطَّ الخليج -ملاعبًا تهفـو إلـيكَ الليلـةَ القمـــراءُ
لحكايـــةٍ فيها الخيـــالُ وسرُّه فيها الفـوارس شِيمـةٌ ووفـــاءُ[2]

وتعد هذه الحكايات الشعبية مظهرا للأدب الشعبى المستوحى من وجدان الجماعة ، وطقوسها وأفكارها وتقاليدها ؛ فكان أنتشار الناس على سيف الخليج مظاهرة شعبية قبل (الدشة) وعند (القفال) أو العود . وتتجلى صورة المرأة بشكل واضح في جانبيها وفى حالتيها ؛ حالة الحزن والألم وحالة الفرح والأمل ؛ فالغوص يمثل للمرأة الخليجية أقسى درجات الابتلاء والامتحان ، وكان عليها أن

---

(١) الرفاعي الدكتورة (حصة سيد زيد) مقال بعنوان جمع مواد الأدب الشعبى وتصنيفها ١٥٦ - ١٥٧ منشور فى سلسلة (ندوات التخطيط لدراسة التراث الشعبى لمنطقة الخليج والجزيرة) مجلد١ - الدوحة - قطر ١٠٤٥هـ / ١٩٨٤م - مركز التراث الشعبى .

(٢) آل ثانى (مبارك بن سيف) : ديوان أنشودة الخليج ٢٩ - ٣١ الدوحة ، ١٩٨٤م ، الطبعة الثانية .

تتماسك ؛ وتقود جركة البيت وتتسلَّم زمام الأمور في مثابرة وجلد قلما يقدر عليه غيرها ، وكان عليها أن تكبت عواطفها ، وتضبط أنفعالاتها ، فلا تطغى على مستقبلها ومسيرة حياة أسرتها . وإن لحظات الصمت الطويل ، وكبت المشاعر والترقب في انتظار الغائب أوحت لها بكثير مما ترسب في الوجدان الجمعي من رؤى واعتقادات ، وطقوس هى من وحي مظاهر الحياة الاجتماعية .

وبدرجة الحماس ذاتها ، وبقوة الحرارة التي يترقب البحارة للعودة لأهليهم كانت درجة اللهفة والأنتظار ، وعواطف التأثر عند المرأة ، إن لم تكن أكثر طغيانا وتأثير ؛ فدور المرأة في القيام على أمور الأسرة كان هينا إذا ما قيس بحالتها النفسية ؛ فقد أبدت مشاعرها إبداء ذا مظهر اجتماعي مؤثر . وقد سجل (مساعد الرفاعى)[1] حواره مع امرأة تقف على سيف الخليج حيث كان الجميع يخرج يوم (القفال) فقال :

وواقفةٍ بقُـرب البحـرِ تبكـى ... لِعظـمَ بُكائهـا عِيـل اصطبـاري
فقلت لها : بكاك لأى خطب ؟ ... وَبى ألـمّ التطلـع كان ساري
وكان بِقُـربها ولـدٌ صغيـرٌ ... بماء البحرَ يلعبُ وهْو جـاري
فقـالتَ : إنما أبكـي لهذا ... وزَوْجٌ زُجّ في قَعْـر البحـار
ومـا حَـولي كريـمٌ أرتجيـهِ ... فيرحمُني ، ويحسنُ لِى جـواري[2]

ولعل الأنشودة الشعبية (توب توب يا بحر) ، وما يصاحبها من تجمع نسائى ، ومن محاولة معاندة الطبيعة بالوسائل المختلفة ؛ كإرهاب البحر بكية بعود محمى ، وتعميد (القطة) فيه ، وسكب لبن ممن ولدت منهن حديثا في مياه الخليج اعتقادًا

---

(١) مساعد السيد عبد الله الرفاعى ١٣٠٨هـ / ١٨٨٣ - ١٩٣٦ شاعر كويتى من دعاة الإصلاح والنهضة الأدبية لتعليم المرأة ، وشعره في الغزل الرقيق طويل النفس ، وفي الهجاء كان مقذعا ، أحرق غالب ما في شعره من هجاء .

الطائيّ (عبد الله محمد) : الأدب المعاصر فى الخليج العربى ٨٥ .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٤٧ .

بأن ذلك سيوجد عاصفة هوجاء تعجل بعودة الغواصين ، وإلقاء الحصى في الخليج وإنشاد :

يـــا حصاةَ الويْلـــوفْ قُـــوديهم قُـــود الخَـــاروف
يـــا حَصاة المقْبَـــرهْ حَائـــر هَوانـــا بـــغيرهْ

تلك الصورة التي تلجأ فيها النسوة لمخاطبة البحر تعبر في صدق جمعى عن مدى فدائية المرأة وشجاعتها وتمنياتها :

تُـــوب تُـــوب يـــا بَحـــر هـــاتْ عِيالْنـــا مـــن البحـــر
غايـــبين مـــن شهرِيـــن لا نـــــائب ولا خبر
يا ليتني فوق الدقل حَمامـة أبشّر الغُـــوص بالسلامـــة
يا ليتني فوق الدقل عَصفـورة أبشر الغـــوص بمحصولـــه
يا ليتني اشُجيرة وأبرد عـليهم يا ليتني خِيمـة وأظلـل عـليهم[1]

ومثل هذه الأغنية تصور مظهرا من مظاهر الحياة الاجتماعية في ملامحها الشعبية ، وآثرها النفسي على وجدان الجماعة .

ولم يكن لرحلات الغوص أن تتوقف فقد دارت مع الزمان دورته ومع المكان ما بين شاطىء وماء ؛ فما إن يأتى موعد (القفال) حتى يكون موعد (الدشة) قد حان ؛ فيجري الاستعداد لرحلة الغوص الحزينة هكذا عبر (الفايز) عن الغواص : (انظر الملحق رقم ٢)

مـــا دمتُ حيًـــا فالبحـــار
مـــأواي أو بـــاعٌ قصير
في الأرضِ حين أمـــوتْ

وتوزعت رحلات الغوص على موسمين كبيرين كل عام ، فضلًا عن بعض

---

(١) من أغانى البحر فى الخليج (توب توب يا بحر) مقال هيا جاسم مجلة المأثورات الشعبية ٦٠ - ٦٥ عدد ٢١ يناير سنة ١٩٩١م . والدقل : سفينة صيد أو سهم السفينة . يراجع سيف مرزوق ج٢ .

ملحق رقم ٢

رِحلة الغوص الحزينَـــة

الدشة

من

يوم الركبة

الشاطئ

يا بحر يا قبرا بـلا لحد ويـا دنيـا غريبـة
اجتـاز عالمهـا المخيـف بـروح بحار كئيبـة
أبـــدا يغنـــي للسواحـــل والعيـــال
يترقبـــون قدومـــه بعـــد المحال
ويعـــود مـــن رحلاتـــه كيمـــا يعـــود
للبحـــر والأسفـــار والدنيـــا كفـــاح
ضد المجاعـــــة والريـــــاح

حياة

القُفّال

البحر

ما دُمتُ حيًّا فالبحار
مأواي ، أو باع قصير
في الأرض حين أموت
محمد الفايز

الرحلات الأخرى في فترة (الجزر) . أما أولهما فهو الموسم المبكر ، وكان يصادف زمن البرودة من منتصف أبريل وحتى آخر مايو لمدة تزيد على أربعين يوما ، وفيها ينزلون (الهيرات) الضحلة ؛ حيث برودة المياه تضطرهم للتناوب كل نصف ساعة . وثانيهما هو الموسم الكبير من يونيو وحتى سبتمبر لمدة تزيد على أربعة أشهر تصل لمائة وثلاثين يوما ؛ فيستغرقون زمانا ، ويتسع بهم المكان حتى يصلوا لسواحل جزيرة (سيلان) شرقا ، ولجزيرة (سوقطرى) ، وسواحل البحر الأحمر غربا ، وكان ذلك أواخر القرن الميلادى التاسع عشر[1] .

وشهدت حياة الغواصين قسوة لفترة هي في حساب الزمن شهور معدودة ، وفي حساب الزوجة البائسة والأهل المتلهفين سنون عديدة تبدلت فيها الأحوال ، وتغيرت المواقف . وكانت الزوجة تعد الأيام بالثوانى ، وتتحرق شوقًا ليوم اللقاء ، وفى هذا المجال يصور الشعر عاطفة المرأة ومشاعرها أدق تصوير ، ويبرز ما تتمتع به من أحاسيس إنسانية لا تقل في معاناتها ، وفي قسوتها عن الغواص نفسه ، فقد امتلأ قلبها حزنا دفينا عميق الأثر ظهر في شعر البحر وفى إيقاع الأغاني الشعبية . وتبدو اللهفة ساعة اللقاء على حركات الزوجة وتصرفاتها ؛ بينما تنادى خالتها (أم جاسم) تشاركها الفرحةوالأمل في أنتظار زوجها جاسم الذي طال غيابه ، وتباعد زمنه كأنه قرن من الزمان على نحو ما صوره (على عبد الله خليفة) :

زَغْردي . . يا خالتى يا (أمَّ جاسم)
زغردي قد عاد (طراق المواسم)
جَهِّزي الحناء . . هاتي الياسمين
هاك ماء الورد والعود الثمين
عطري (البِشْتَ) ، وأعطيني الخواتم
طافت البشرى بأهل الحى قومي

---

(١) لوريمر (ج . ج) دليل الخليج ، القسم التاريخى ٦ /٣٢٠٤ - ٣٢٠٥ . والهيرات : المغاصات .

واتركي عنك تعلات الهموم
قد سمعت الكل في الأسياف يحكي
عن شراع في المدى أجتاز اختبارات المحك
لا يبالى الموج ؛ أو لفح السموم
ساعديني رتبي عني المساند
وانثري المشموم والأشواق في كل الجوانب
وأصيخي السمع للهو لو على الشطآن عائب
أشهر الغوص تمطت فتبددت
في حساب العمر قرنا وهو غائب[1]

وموضوع القصيدة (صدى الأشواق) وعنوانها يعبران عن لحظات الفرح الغامرة . وحرص فيها الشاعر على استلهام الموروث الشعبي واستخدامه بعناية ذات بعد فني ، وخصائص تعبيرية ؛ حيث تقوم النساء بالترتيب الجيد لهذا اللقاء بعد غياب طويل ؛ فالحناء والعود الهندي والياسمين وماء الورد . . تفوح روائحها في كل مكان وتعطر (البشوت) ، وتلبس الخواتم ابتهاجا بالعود الحميد .

وتمتد المغاصات من ساحل عمان المتصالح على بعد أميال قليلة ، وتسير باتجاه (دبى) من (صبر بونعير) ثم تتجه حول رأس قطر وأرخبيل البحرين ، وامتداد حتى الكويت . ومن طبيعة الأصداف (المحار) الالتصاق في القاع بالرمال ، أو الشعب المرجانية . وقواقع اللؤلؤ منها المحار والزنينة والصديفية وعمرها بين سنتين وثلاث . ولربما تصاب قواقع اللؤلؤ بالأمراض نتيجة اضطراب القاع .

---

(١) خليفة (على عبد الله) : أنين الصواري ٤٧ - ٤٩ بيروت ١٩٦٩ ، دار الآداب . والقصيدة على البحر الرمل (فاعلاتن ٦ مرات) إلا أن تفاعيل البحر توزعت على نظام السطر الشعرى ثلاث تفاعيل فى كل سطر تخللتها بعض مجزوء الرمل (تفعيلتان فى كل شطر) وتنوعت القافية ما بين الميم والنون والكاف والدال والباء . والزغردة من زغردت المرأة أى رددت صوتها بلسانها فى فمها عند الفرح ، والبشت بكسر الباء : كساء دون أكمام يلبس فى البرد وفى المناسبات المختلفة .

وكانت الطبقات الدنيا والمتوسطة في الكويت والخليج هى التي تعمل في استخراج اللؤلؤ منذ بداية القرن الميلادى العشرين ، وكانت قوارب صيد اللؤلؤ تقارب الخمسمائة سفينة ، ويعمل عليها ما يقرب من عشرة آلاف رجل[١] .

أما العاملون في البحث عن اللؤلؤ فهم مجموعة الغواصين والتجار ، ويوجد في كل سفينة (النواخذا)[٢] وهو ريس السفينة والمسؤول عن جميع الأعمال ، وغالبا ما يكون (النواخذا) هو الربان وهو مالك السفينة ، وقد يكون مستأجرًا لها . ومهمة الغواصين الغوص فقط وهم يتمتعون بصفات البطولة والإقدام والجرأة والتحمل والمثابرة ومواجهة الأخطار[٣] ، وهم يستمدون بطولاتهم وجسارتهم من حاجتهم للمال وقوة بنيتهم ، ويليهم في درجة الأهمية (السيوب) وهم الذين يقومون بملاحظة الغاصة عند النزول وعند الرفع من الماء ، ويتصفون بحسن التصرف وسرعة البديهة ويختارون من قدامى الغاصة ، وعلى السفينة (رضفة) واحد أو أكثر يساعد (السيوب) وقد يكون مع (السيوب) أولاد صغار يقومون بصيد السمك وطهي الطعام . ويجمع أهل المركب ألفة ومودة ؛ فهم يكونون مجتمعًا صغيرًا ما بين ستة عشر فردا إلى أربعين يلتقون على الفرح والترح والخير والشر .

ومن طبيعة حرفة صيد اللؤلؤ أنها توجد نوعا من التعاون بين طبقتين من المجتمع ؛ بين العاملين الذين لا يملكون إلا سواعدهم وقوة أبدانهم ، وهم طبقة فقيرة ، وبين الممولين للعمل وهم ذو اليسار ، ولولا التعاون بينهما على جلب المصلحة لما كان لهذه المهنة أن تنهض وتستمر ؛ فالمال اللازم لعملية الغوص من إعداد للسفن ، وإنفاق على العمل والعمال كان العاملون في المهنة يقدمون جزءًا

---

(١) لوريمر (ج .ج) ، المرجع السابق ٤ / ١٣٠٩ .

(٢) الناخواه : كلمة فارسية الأصل تعنى المسؤل عن السفينة والذى بيده مقاليد أمرها ، وله ثلاثة أسهم من ناتج محصول اللؤلؤ . وجمع النوخذا نواخذة .

(٣) عبد الله الدكتور (محمد حسن) ، مرجع سابق ١ /٤٨ .

منه ، ويأتى الباقي على هيئة قروض من أصحاب المال (المسقمين) ومن كبار التجار الهنود بفوائد أو دونها . إلا أن مجتمعَ الغوص كان ظالما لنفسه ، ويأتى على رأس القائمة الممولون (المسقمون) أو (الطوشون) وهم كبار التجار وأصحاب الربح الوفير والمصلحة ؛ فهم يأتون على أعلى الهرم ، وما عداهم سواد العاملين المعدمين[١] .

الطواشون

أو المستقمون

لهم المال كله

النواخذا الجعدى المجدمى الغواصون السيب الرضيف التياب

٣ أسهم ٣ أسهم ٣ أسهم ٣ أسهم سهمان سهم سهم[٢]

والشعور بالظلم والمفارقات العجيبة جعلت نفوس كثير من الشعراء تهتز وتتألم لذلك ومن ثم جاء شعرهم إحساسًا بمدى الظلم الاجتماعي الذي تحمله ذلك العملاق :

يـــا لعمـــلاقٍ طعيـــنِ الكبريـــاء
بعضَ إنسانٍ على الشاطِيء مُلقى كالرفاتِ
عافَه البحرُ ، وأرْدَته قوانينُ الطغـاةِ
بعد أن عاشَ سنِّى العمرِ مصلوبِ الحياة
بين أفـــــــواهٍ تنـــــــادي
ومنـادٍ . . هـات مـن دَيْنكِ هـاتِ[١]

وكانت لصيادى اللؤلؤ خبرة قوية في الاتجاه لمقصدهم الصحيح قبل استخدام البوصلة والخرائط فكان اعتمادهم على الطبيعة من شمس ونجوم وعلامات على

---

(١) الشملان (عبد الله خليفة) ، صناعة الغوص ١٠٣ - ١٠٥ .
(٢) عبد الله الدكتور (محمد حسن) ، مرجع سابق ١ /٤٨ .
(١) خليفة (علي عبد الله) أنين الصوارى ٧١ - ٧٢ .

السواحل يهتدون بها ولون المياه وطبيعة القاع بالعين المجردة . وكا ربابنة السفن لا يتعمقون غالبا لأكثر من ٨ قامات إلى ١٢ قامة وقد تصل إلى ١٦ قامة بمجهود صعب (والنواخذة) مقيدون بقدرة الغواصين ومدى تحملهم .

وتتكون اللآلىء داخل المحار (القواقع) من إفراز مادة لؤلؤية في حويصلة كيس يحيط بجسم علقة (دودة) ناتج عن تسرب حشرة طفيلية صغيرة جدا هى يرقة بيضاء كروية غير شفافة لدودة شرطية سابحة في المياه . وعند دخول اليرقة جسم المحارة يحيط بها كيس مكون من أنسجة متلاحمة ، أو غلاف مخاطي . ثم تفرز الحويصلة من جدرانها الداخلية المادة اللؤلؤية حول اليرقة ، وهى مادة مخاطية تدخل تلقائيا باطن المحارة فتتكون اللؤلؤة قبل موت اليرقة أو بعده ، وهى لؤلؤة الحويصلات . ولربما تنشأ اللآلىء عن ظروف أخرى غير الإصابة بالطفيليات فتكون النواة الأولى لها من حبيبات الرمل وهو ما يطلق عليه اللؤلؤ الزجاجي أو كرات الجبر الصغير التي تدخل في الأنسجة العضلية (اللؤلؤ العضلى)[٢] . ويطلق أهل الخليج على اللآلىء قماشا[٣] كأنها ثياب بيضاء .

وأول رحلات الغوص كانت تعرف بـ (الركَّبْة)[٤] ، ويوم إيجار السفن هو يوم (الدَشَّة)[١] ، وفيه يودع الغواصون بالدعوات ، والنصائح والتمنيات بالعود الحميد فيقولون له :

واحذَر البحرَ ؛ ففى البدءِ الدُّوار
عـاصفٌ يأتيكَ محمـــومَ الأُوار

---

(٢) لوريمر (ج .ج) دليل الخليج القسم التاريخى ٦ /٣١٩٨ - ٣١٩٩ .

(٣) القماش : كل ما ينسج من الحرير والقطن ونحوهما ، وهى كلمة مولدة .

(٤) الرَّكْبة بفتح الراء المشددة وإسكان الكاف على (فَعْلة) اسم مرة للركوب .

(١) والدَّشَّة : من دَشَّ فلانٌ فى كلامه أكثر منه ، ودشَّ فى الأرض : سار فيها ، وهى على وزن فَعلة : اسم مرة للنزول فى الماء .

انظر عبد الله الدكتور (محمد حسن) مرجع سابق ١ /٤٧ .

وتتهادى السفن فلا يكاد يبقى على الشط إلا وجوه حزينة من العجزة والنساء والأطفال :

خلف أُفق يحجب الحزن ضَبابا
عـــن دمـــوعِ البـــائساتْ
عند شطٍ قد تركناهُ شهورا
عند شطٍ قد تركنا فيه أحبابا
ثم حطّمنـــــــــا الجسورْ[٢]

ويوم العود هو يوم (القُفَال)[٣] حيث يخرج الجميع صغارًا وكبارًا ونساء انتظارا لقدوم الغائبين . وفي ذلك يستعيد (مبارك بن سيف) ذكرى ذلك اليوم فيخاطب بقايا سفينة الغوص :

إن تذكـرتِ فهـل تَـنْسين ؟
أيـــــامَ القُفـــــال
بعد ليل طال في البحر وطال

ويعود البحارة موزعي المشاعر بين الأمل والألم والرجاء واليأس والفرح والحزن والظفر والخيبة والانتظار والانكسار من رحلة الصيف الحزينة ، بينما يدفع البحارة شوق صادق لبلادهم ، وهم يغنون نشيد العودة ، ومواويل الفرح ،

---

(٢) مبارك بن سيف : الليل والضفاف ٣٩ .

(٣) القُفال : موعد رجوع السفن ، وهو وقت الفسحة والراحة بين الموسم المبكر (الغوص الأول) والكبير (الغوص الثانى) .

والقفال بضم القاف المثناة وتشديد الفاء جمع قافل من قفَل قفولًا : رجع . وسميت الجماعة المترافقة المبتدئة سفرا : قافلة ، تفاؤلا بعودها سالة . والقافلة : الرفقة يكون معها زادها ومتاعها . وكان موعد (القُفّال) فى أواخر سبتمبر عندما يتساوى الليل والنهار بمثابة عيد لأهل الخليج ؛ فترى الناس على اختلاف طبقاتهم يفرحون به ، ويجعلونه عيدا .

انظر : الشملان (سيف مرزوق) : تاريخ الغوص على اللؤلؤ فى الكويت والخليج ٢ /٣٠٠ ؛ عبد الله الدكتور (محمد حسن) مرجع سابق ١ /٤٨ .

ويقولون للبحر (تب يا بحر) على ما صوره مبارك بن سيف في حديثه للخليج :

يا خيرَ من أنِسَ الوجودُ جمالَه ... إن الحيـــاةَ بحسنِـــه زهـــواء

....

كم يا خليجُ سمعتَ من قصص الهوى ... همسُ الأحبـــةِ مالـــه إخفـــاء
يا بحر . . هل ضمَّ الصباحُ لقاءهم ... أتراه هـل ضمَّ اللقـاء مساء ؟
فرمالُ شطكَ لوعـةٌ وسعـادةٌ ... ورمـالُ شطِّك فُرقـة ولقـاء
في موعدِ (القُفَّال) نُشعل نارنا ... ونقول : تُبنا[1] . . . فالبحارُ قضاء
حتى إذا لاحَ الشراع تُهلـلت ... أصواتهمُ ، وتجاوبتْ أصداء
وترى الكواحلَ والكواعبَ أدمُعًا ... والقلبُ خوفٌ ، واللسانُ دعاءُ

---

(١) نقول : تُبنا : تعبير يردده الصغار والنساء (تُوب . . تُوبْ يا بحرُ) بضم التاء وإسكان الباب وأصل الفعل : تب أمر من تاب ؛ اى اترك وارجع ، وعد إلى الله من المعصية ؛ فكأنهم يريدونه أن يتوب ؛ أى يرحم ويعطف على ذويهم ؛ ويحن عليهم ليرجعوا سالمين ، كما أن النساء يعاتبن البحر ؛ ويستعجلنه في عودة أهليهم الغواصين . وكانوا يشعلون الأخشاب على الشاطىء يتصورون أنهم بذلك يحرقون البحر ويعذبونه ، وكانت النسوة يخرجن فى مظهر شعبى قبيل (القُفَال) وعند إحساسهن بقرب قدوم الغائبين ، وكن يغنين ويصفقن ، وتتقدمهن مملوكة معروفة من مماليك أسرة (آل خميس) تدعى (سَبْتُوه) ، ولها ابن يسمى (محمَّدًا) كان يذهب مع الغاصة ؛ فكانت تغنى ؛ وتنادى على ابنها قائلة (يا الكبريتْ . . هات محمد العِفْريت) والعفريت : الشيطان . وكانت (سبتوه) تقول (تُوبْ . . تُوبْ يا بحرْ) وتردد المجموعة قائلة (أربعة والخامس دخَل) أى أربعة أشهر ، وتقول (سَبتوه) : جِيبهُم ما تخافْ من الله يا بحر ؟ ! والأغنية حِواريَة وطويلة يجري الحوار فيها بين (سَبتوه) والمجموعة التى تردد (أربعة والخامس دَخل) . ويمضى الحوار الغنائي الشعبي الحزين ممزوجا بين الألم والأمل ومختلطا فيه الحزن بالفرح ، وتتقدم (سَبتوه) نحو البحر ، وتخوض فيه ، وتعمد لسعفة في يدها فتوقد بها النيران ، ثم تغمسها في البحر ، وتخاطبه (نِكْويك إذا ما جاء الغواويص) ، ثم تخرج من البحر ، وتأتي بقطة صغيرة ، وتخوض فيه مرة أخرى ، ثم تغمس جسم القطة فتقول (نيو . . نيو) وتردد (سبتوه) : بِيُونْ ؛ أى يأتون (الغواصون) .

وبينما هم على هذه الحال من المظهر الشعبى تبدو صواري السفن ، ويلوح الغواصون من بعيد .

وبقى هذا المظهر الشعبي الأسطوري مترسبا في الوجدان الجمعي كأحد مظاهر الأدب الشعبي ، وظلت هذه التقاليد ما بقيت حياة الغوص حتى اختفت سنة ١٣٥٠هـ / ١٩٢٩م .

راجع : الشعلان سيف مرزوق : المرجع السابق نفسه ٢ /٣٠٧ - ٣١٢ الكويت ١٩٧٨م طبعة ١ .

جاءوا وأحلام الصغارِ هديـة أبـ(أنجمٍ)[1] و(قواقعٍ) له جاءوا
يا بحرُ . . إن بعدت مرابع أمسنا فالذكرياتُ - إذا نأيتُ - عزاء[2]

أما (أحمد محمد الخليفة) فيعبر في (رائية) من شعره بصورة مشرقة أخاذة للمشهد على سيف الخليج ؛ فيها دلائل على معاني الحب والوفاء ، وعلى القدْرة في الأنتصار والعزيمة ؛ أنتصار إرادة الإنسان ، ونجاح الهدف ، وتحقيق الأماني على نحو قوله :

إذا (القُفَّال) آن هفتْ قلوبٌ يحرِّكُها الحنينُ إلى الديار
ومدت أشرع بيض لطافٌ تسيرُ على جناح الادكار
تُلفُّ حبالها أيدى رجالٍ لهم صيتٌ يتيهُ مع الفخار
وغنَّى كل (نهام) عريقٍ بـ(موالٍ) يذوبُ مع النَّهار
وفى عرض الشواطىء فاتناتٌ تُرادى للإيابِ على انتظار
تُردِّدُ أغنياتِ الشوق لحنًا وتشدُو مثلمَا يشدو القِمارِى
فتلك تريدُ والدها وهَذي تريد أخا تغرَّبَ في البِحار
وذا ولد أتى يبغي أباهُ وذا جار أتي للقاء جارِ
وتزدانُ البيوتُ ويزدَهيها أهازيج الصغار مع الكبارِ
وتهرع نسوةٌ للسَّيفِ تبغى مشاهدةَ القلوع من الصواري
وتختالُ الشواطيءُ بالصبايا كما تختالُ بالمطرِ البراري[1]

---

(١) الأنجم : حيوان بحري صغير يُجفَّف ويُؤكل ، وشكله شكل الجمل ، وهو من الهدايا التى كان يجلبها الغواصون لأطفالهم .

(٢) آل ثان : مبارك بن سيف : ديوان أنشودة الخليج ١٨ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٣ - ٣٤ الدوحة سنة ١٩٨٤م ، الطبعة الثانية : الشرقية للنشر والتوزيع . والأنشودة همزية عمودية طويلة النَّفَس تقع في أربعمائة وثلاثة أبياتٍ على البحر الكامل التام (متفاعلن ٦ مرات) .

(١) ديوان : بقايا الغدران من شعر أحمد محمد الخليفة ١١٨ - البحرين ١٩٦٦م - المطبعة الشرقية ، والقصيدة على البحر الوافر مفاعلتن مفاعلتن فعولن مرتين . ومراداة الفاتنات : رقصتهن على الشاطىء فرحا باستقبال العائدين من البحر . وتضرّب فى البحار : سبح .

. وامتزجت المشاعر في هذه المسيرة الطيبة الخيرية ، مسيرة طلب الرزق ، واختلفت ما بين ألم وأمل ، وحياة وفناء ، وهذا ما يتراءى من قصيدة (مانع سعيد العتيبة) التي تحكي قصص البحر والغوص :

كان للوالدِ في البحرِ رفاقٌ وسفينهْ
صنعُوها بالأيادي السُّمر شماءَ متينهْ
رفعوا فيها شِراع الحب لا شِرع الضغينهْ
فإذا الأمواجُ ثارتْ ، ولها صارتْ رهينهْ
برز الإيثارُ فيهم وبطولاتٌ دفينهْ

أما رواد شعر غوص البحر فإن الكثير من الشعراء المعاصرين تناول هذه الظاهرة تناولا يبرز ملامح الفن وغاياته عند كل منهم . وسنقف حول أكثر الشعراء وأقدرهم في الحديث عن غوص البحر .

★ ★ ★

- ١ -

جاسم عبد العزيز القطامى[١]

(١٩٢٧ - ....؟)

إن صورة الغواص في واقعها ،وفي مظهرها العام ، وفى ملابسات وجودها وانتشارها لم تكن بالأمر الغريب على منطقة الخليج ، ولا دخيلة عليها ؛ بل هي ظاهرة اجتماعية صارت مهنة ارتزاق أجيال متعاقبة . غير أن كثيرا من الأدباء لم يلتفتوا إليها في القديم - لسبب أو لآخر ، وكان الأمر لم يكن يعنيهم أو يثير مشاعرهم لينفعلوا به .

و لم يبدأ الحديث يتكشف عنه إلا عند أدباء الخليج المعاصرين منذ بداية النصف الثاني من القرن الميلادي العشرين ؛ فكانت أول إشارة وانفعال إثارة به ما تمثله (أحاديث أو حكايات) عن حياة الغواص في الأدب الخليجي بوجه عام عند (جاسم عبد العزيز القطامي)[٢] ؛ ففى سنة ١٩٤٨ نشر مجموعة خواطر أو

---

(١) أديب كويتى ولد سنة ١٩٢٧ ، وأتم دراسته الابتدائية والثانوية بالكويت ، ثم سافر إلى مصر سنة ١٩٤٨ ، والتحق بكلية الشرطة ، وتخرج فيها سنة ١٩٥٢ ، ورحل إلى لندن لدراسة القانون ، وعاد للكويت سنة ١٩٥٣ فعمل بإدارة الشرطة ، حتى وصل إلى درجة مدير عام . وفى سنة ١٩٥٦ استقال لرفضه التصدى للجماهير التى كانت تندد بالعدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ . وفى سنة ١٩٦٢ عمل وكيلا للخارجية ثم انتخب لمجلس الأمة الكويتى مرتين سنة ١٩٦٣ ، ١٩٧٤ .

ويعد (القطامى) أحد الثلاثة الذين دارت عليهم حركة النضال الوطني ، وقادوا الدعوة للاستقلال ؛ فكان معه الشيخ عبد الله السالم الصباح وأحمد الخطيب . الزيد (خالد سعود) : أدباء الكويت في قرنين ٣ /٣٠٣ - ٣٠٩ .

(٢) يرى الأستاذ محمد جابر أن قضية ظاهرة الغوص تبدأ بصدور ديوان محمد الفايز (مذكرات بحار) سنة ١٩٥٦ ويعده فاتحة حركة الشعر الجديد بمنطقة الخليج . =

مشاهد وأقاصيص تعد في ذاتها باكورة الحديث عن شخصية الغواص) ؛ بوصفها شخصية نموذجية أصلية تمثل شريحة من المجتمع تعلقت بمهنة الغوص ، واتخذتها وسيلة معيشة .

من هذه المجموعة النثرية ما أسماه (قصة من واقع الحياة) وهى تصور شخصية (أبو حمود) ذلك الشاب القوي الذي كان مضرب المثل في الشجاعة ، وحديث المنتديات والمجالس والديوانيات . فقد اكتسب جلدا ومثابرة وقدرة على العمل وبسطة جعلت (النواخذا) يتسابقون عليه . وبهذا انتزع (أبو حمود) إعجاب الجميع بنشاطه فوق السفن ؛ فما يكاد (الريان) يشير إلى شيء حتى يسرع ملبيا ، في لمح البصر يتسلق السارية ، ثم ينزل عنها ، وهكذا لم ير إلا نشطا ، حتى في أوقات الراحة يتفقد كل شيء يصلح الفاسد ، ويكمل الناقص ، يرتب المبعثر ، وتمضى حياته في البحر على هذا النحو حتى يصل إلى (المجدمي)[1] ، فينهل عليه الرزق . وفي ليلة حالكة السواد ، وبينما السفينة مبحرة إلى (بومباي) هبت عاصفة هوجاء ، واندفع الهواء داخل الشراع ، وكادت السفينة أن تغرق لولا شجاعة (أبى حمود) وسرعة تسلقه السارية ، وإنقاذ الموقف بتقطعيه الحبال التي تشبك الشراع . لكنه كان الضحية الحقيقة بعد ما قذفت به العاصفة من أعلى السارية فسقط مهشم العظام . وتمضي السفينة لمقصدها دون علاج ورعاية كافية للشاب ، وتشتد قسوة قلب (الربان) فلم يمل به على أحد الموانىء للعلاج ،

= مجلة الدوحة عدد مايو ١٩٧٦م ، جمادى الأولى سنة ١٣٩٦هـ ص ٦٤ - ٦٩ .

ويرى الدكتور علوي الهاشمي أن أول من تناول أدبا جديدا عن الغوص وتحدث عن شخصية الغواص في أدب البحرين المعاصر والخليج عامة - وهو الشاعر أحمد محمد الخليفة فى قصيدته (أنشودة الغواص) المنشورة فى ديوانه الأول الصادر سنة ١٩٥٥م وليس الشاعر الكويتي محمد الفايز كما ذكر الأنصاري .

الهاشمي الدكتور (علوي) : ما قالته النحلة للبحر - الشعر المعاصر فى البحرين ، ص ٥١١ ، بغداد سنة ١٩٨١م ، دار الحرية للطباعة .

(١) المقدمى : رئيس البحارة ، وهو المسئول عن العمل فى السفينة ، ويسميه ابن ماجه فى كتابه (التنديل) أي رئيس العمال والمجدمى مشتقة من التقدم لأنه يتقدم البحارة فى العمل .

ولم يستجب رجاء البحارة حتى وصل (بومباي) ونقل للمستشفى ، لكن المرض قد سرى في الرجل كلها واقتضى الأمر بترها .

وعاد الشاب للكويت مبتور الساق محطم النفس موزع المشاعر بين يأس لا أمل منه ، وعيشة لا خير فيها . وهكذا توقفت حركة البطل ؛ وانقطع مورد رزقه ؛ فأنفق كل ما عنده واضطر لمد يده للربان للمساعدة ؛ لكن الربان الذي أهمل علاجه رفض مساعدته معتذرا بقلة المحصول . وليس ثمة تأمين للغاصة ضد العجز والمرض . وكانت النتيجة انزواء الشاب وانطوائه على نفسه حتى وافاه أجله دون أن يشعر به أحد وهو بين قهر وكمد وأسى ولوعة[١] .

وتعد الأقصوصة مثالا ونموذجًا حيا لمأساة كل شباب المهنة الذين يفاجئهم الحدث أو المرض . ولعل (القطامي) هدف بها لمغزى عميق الدلالة يكشف به عن مدى المعاناة التي تصيب البحارة ؛ فمن مرض[٢] من جراء المهنة يبقى قعيد بيته دون اهتمام طبي[٣] ، أو رعاية اجتماعية ومن مات ورثت عائلته تركة مثقلة بالديون قد يباع فيها متاعهم ومسكنهم ويبقون مشردين .

ومع أن الأقصوصة ذات مضمون اجتماعي يمس شريحة كبيرة من المجتمع ؛ إلا أنها من الناحية الفنية ضعيفة المستوى تفتقر لجودة الحبكة وللوصف الدقيق[٤] .

---

(١) الزيد (خالد سعود) : أدباء الكويت فى قرنين ٣ / ٣٣٨ - ٣٤٠ ، الكويت سنة ١٩٨٢م ، الطبعة ١ شركة الربيعان للنشر والتوزيع .

(٢) ثمة أخطار كثيرة كان الغواصون يتعرضون لها كالعاف والتيار وانفجار الأذون والجروح والصدمات والكسور ، وكذا الأمراض الجلدية كالسمط وأم إزليقة والطنان وابو أقشاش والشاقة والصرع والكحة والحشوة وآلام الصدر والبطن . . الخ . انظر : الشملان (سيف مرزوق) مرجع سابق ١ /٤٢٣ - ٤٣٥ .

(٣) كان العلاج غالبا بالوصفات البدوية من الأعشاب والكى . ولم تكن ثمة رعاية صحية دقيقة .

(٤) الزيد (خالد سعود) : أدباء الكويت فى قرنين ٣ /٣٢٦ - ٣٢٨ - الكويت ١٩٨٢م الطبعة الأولى ، شركة الربيعان للنشر والتوزيع .

وتابع (القطامى) فنشر في العام نفسه (زواج بحار) وهى أشبه بـ (يومية) تحكى معاناة البحار لثلاثين عاما يكد ويكدح طلبا للرزق الحلال ، وسعيا للزواج . في سعادة غامرة يقبل على الزواج ، ويعقد على فتاة تأبي تقاليد الخليج أن يراها إلا ليلة الزفاف . ثم يفاجأ بفتاة شوهها الجدري ؛ وأفقدها إحدى عينيها ؛ فبقي يندب حظه ، وتحول من شاب مثال للأدب والخلق إلى إنسان آخر يملؤه الفسق والفجور يقضى لياليه في الحانات ، وبيوت الخنى .

ويرد الكاتب ما أصاب الشاب من صدمة نفسية أفقدته كل صوابه . بمحاولة التعويض عن الحرمان – إلى تقاليد المجتمع التى حرمته رؤية فتاته عند إرادة الزواج .

أما (يوميات بحار)[١] فهى سجل مجمل لبعض المواقف المتفرقة مما يقع للغواصين وذويهم ؛ فيومية أول رجب حديث موجز عن مشاكل الغواصين التي لا تنتهي ، فحياتهم كلهم في البحر مغامرات ومخاطر لا يرجعون منه حتى يعودوا إليه ، وهم معلقون بأسباب القدر[٢] .

و(يومية الخامس من شهر رجب) استكمال للحديث ، فالغواص مفروض عليه تلبية دعوة (النواخذا) في العودة للبحر ، تحكمه ظروف اجتماعية غاية في السوء وديون على الأسرة منذ كان والده يقيم على المهنة من عشرين سنة . واليومية تثير قضية ابتزاز التجار للغواصين واستغلال عملهم في سخرة لما عليهم من ديون لا يستطيعون دفعها فتبقى متراكمة ومن ثم يضطرون للعمل تحت ضغط التجار وأصحاب السفن[٣] .

ويومية العاشر من رجب تتابع الموضوع نفسه ، وتبين أن المهنة تقوم على

---

(١) اليوميات تهتم بعرض الأحداث عرضا منفصلا غير متصل لا ترتيب فيها .

(٢) المرجع السابق نفسه ٣ /٣٢٢ .

(٣) المرجع السابق نفسه ٣ /٣٣٤ .

السخرة وتستغل فيها صحة الغواصين ووجهودهم نظير سداد الديون وأن عليهم كسب مودة (النواخذا) وتحقيق مصالحه مهما أدت كثرة الأسفار والانقطاع عن الأهل إلى ضياع الأسرة وتشتت الأولاد ، ونسيانهم لآبائهم ، وإصابتهم بالكآبة مما ينعكس على سلوكهم وتربيتهم ونفسيتهم ؛ حتى الزوجة لا تشعر للحياة الزوجية بأي معنى سوى ما بينهما من رباط الزوجية ، كما أن الزوج يعد نفسه مجرما وآثما في حق أولاده وزوجته . وهذا ما تحكيه يومية الخامس عشر من رجب[٤] .

أما ما كتبه في العشرين من أغسطس فقد جعل عنوانه (مذكرات بحار) دون استطاعته التمييز بين المذكرات واليوميات ؛ فالمذكرات ما يعنى فيها بالحديث عن الوقائع التاريخية أكثر من العناية بتصوير ذاتية صاحبها . وتعد هذه المذكرات[١] مصدر إلهام وصدى لما كتبه - بعد - (محمد الفايز) . فقد لفتت نظره من حيث فكرتها وموضوعاتها واسمها لكتابه (مذكرات بحار) .

و(المذكرة) تصور حياة البحار ، وما أصابه من أمراض نتيجة ظروف العمل الشاق في جو متقلب . وكثرة خروجه من الماء بثياب مبللة متعرضا لتيارات هوائية ؛ فقد اضطر الغواص للذهاب إلى المستوصف الأمريكي إلا أنه لم يجد رعاية لأن مهنة الطب خرجت عن طبيعتها كمهنة إنسانية إلى وسائط ومصالح يضيع فيها حق الفقير المريض ، ومذكرة الخامس والعشرين من أغسطس إتمام للسابقة .

أما باقي اليوميات فجاءت تحت عنوان (للذين يذكرون الأهل والجار ، ويمتطون موج البحار جريا وراء الرزق) ، فمذكرة يوم الأربعاء السابع عشر من سبتمبر جاءت قصيرة تحكي أحاسيس البحار ساعة استسلامه للأحزان

---

(٤) المرجع السابق نفسه ٣ /٣٢٦ .

(١) كتبها سنة ١٩٤٨م .

وللذكريات حينما ينشد (النهام) مطلع أرجوزة شعبية :

ودَّعتُكم بالسلامة يا نظَر عِيني وخِلافكم ما انطبق جَفني على عيني

فهذا الصوت يذكره بصوت أمه العجوز المريضة حين تودعه ؛ فقد عرف الصوت مرارًا ، وتردد على مسمعه لأكثر من عشرين مرة . ومثل هذه الأحساسيس تأخذ به كل مأخذ خوفا مما يخبئه المستقبل له ولأمه المريضة . والذكريات ثم تتجاوز في نفسه ، وتختلط بدموع الأسى والآلم ، فقد ترك وراءه عجوز لا أحد برعاها ، ويتساءل ترى كم من هؤلاء الذين ركبوا القارب تحمل في نفوسهم مثل هذه الإحساسات . إنه يشعر بهم واجمين ؛ يخفون لوعتهم ، وينسون أساهم بالتجديف ، بينما الفكر لا يفارق مخيلتهم .

وتتجاوز (يومية) يوم الإثنين الثانى والعشرين من سبتمبر الأمر ، فدلالتها يسيرة تمثل طلب السلفة من (النواخذا) إلى (يومية) الثامن والعشرين من سبتمبر ؛ فهى تنفذ إلى أعماق النفس ؛ وتستكشف أغوار الباطن ، وتلح على موقف مؤثر حينما وقفت العجوز تودع ابنها الوحيد لرحلة الغوص الشاقة ، وهو وداع إلى المجهول والغائب ودموع الأم تنهمر ؛ وقلبها يسقط في جسدها ، وهى تقبل ابنها ؛ بينما هو لا يستطيع حبس مشاعره ؛ وهو يقول (رباه . . إن قلبى ليكاد يطفر (يثب) من بين جوانحى) لمنظرها ، وقد وقفت أمامي لتقبلنى قبلة الوداع) وهي تردد (عد لي يا بني . . إن الزمن لم يترك لي سواك من بعد ما التهم قاع البحر أباك . . أي بني . . إنى لعجوز قد دهمها الدهر وانهكتها السنون فما أدري – والله – أني سأراك بعد الآن أم لا ؟ ! !)[1] . أما البحار فقد ترك أمه فريسة المخاوف والوساوس ومضى لمهنته وهو غارق في بحور الأحزان والآلام .

أما (يوميَّة) الخميس السادس عشر من أكتوبر فتحكي معاناة البحارة عندما

---

(١) المرجع السابق نفسه ٣ /٣٤٢ .

هبت عاصفة ؛ وهاج البحر ، واضطربت السفينة حتى كادت أن تشرف على الغرق لولا عناية السماء وشجاعة البحارة وتعاونهم وخبرتهم فانقذوا السفينة ، ومع ذلك لم يقدر لهم الربان عملهم ولم يدع لهم وقتا للراحة .

(ويومية) الثلاثاء الحادى والعشرين من أكتوبر هى كذلك انفعال مؤثر بموقف بدا أقوى من البحارة جميعا ، وهو بالتأكيد ناتج عن قسوة العمل في جو البحر والسفن حيث يشح الغذاء وينعدم الدواء . وكان المرض قد داهم شابا يمتلىء حيوية ، ولم يقف بجواره إلا زملاء الغربة ورفقاء الرحلة (يا ليبتهم أبناء السندباد . . لكم حرموا أنفسهم لذيذ النوم ليؤنسوا في خلوته ؛ ويواسوه في محنته . .) وبينما هو في النزع الأخير همس في أذن أحد زملائه ليؤدي عنه واجبا تجاه أخته الصغيرة فيهديها عروسة تلهو بها عند الرجوع وثوبا أسود لأمه .

(ويومية) الخميس الثلاثين من أكتوبر تعبير عن مدى انفعالات البحارة وسرورهم حينما يقتربون من الشاطىء ، وتلوح لهم من بعيد آثار الحياة على البر ؛ فيصيحون (بر يا جماعة بر . .) فيعود الأمل لنفوس حطمها اليأس ، ولا يكادون يصلون للشاطىء حتى يتعاونوا على تفريغ المراكب بروح جماعية .

و(يومية) السبت الأول من نوفبر امتداد لموقف سابق مؤثر ؛ فقد كان أحد البحارة مشغولا بتنفيذ وصية صديقه الذي طواه البحر فاشترى عروسة لأخت زميله ولأمه ؛ وما زال حديث صديقه يتردد على مسمعه (أمي وأختي ترى ماذا هما فاعلتان إذا عرفتا بالخبر . . يا إلهي الطف بهما ، والهمهما السلوان) .

وعلى هذا النحو جاءت المذكرات بعنوان (المجموعة القصصية) سواء ما كان منها (يوميات بحار) أو (مذكرات بحار) . فكلها مثال لأساليب النثر السردي المباشر القائم على الوصف السطحي مما جاء عفو الخاطر دون تنميق أو تأنق أو تجويد ؛ ولكنه أشبه بالسرد العادي الخالي من اللمحات الفنية والتأثير النفسي والشعوري .

لذلك يغلب عليها لغة الحديث المتكرر لتسجيل بعض ظواهر حياة الغوص ومشاهدات البحار دون تعمق كاف ؛ ودون رصد متكامل أو تحليل دقيق أو الالتفات لما وراء الحدث من مغزى ؛ مما أفقدها القدرة على ربط الظواهر ببعضها ، والتحليل الموضوعي لها ، وكأن (اليوميات) حديث عن الشاعر ذاته ، وإشارة لدوره فيها ؛ فجاءت تسجيلًا عاما لحياة الغواصين ، ورصدا لبعض ظواهر الحياة في تناقضاتها في مجتمع الخليج زمن الغوص في فترة التحوّلات والتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي رصد (القطامي) بعض صورها المهملة ، ويلاحظ على المجموعة عدم اكتمال البناء القصصي وتناسق الأجزاء .

★ ★ ★

- ٢ -

محمد فايز العلي[١]
(١٩٣٢ - ١٩٩١)

يعد (الفايز) بتفرده وتميز شعره من أظهر الأدباء الخليجيين المعاصرين رصدًا

---

(١) ولد في العراق سنة ١٩٣٢م في العام الذى مات فيه حافظ وشوقى ، ونشأ في بغداد وفيها أتم تعليمه ، ثم حبب إليه الأدب لما قرأ عن الشعراء العراقيين وغيرهم من المعاصرين له أمثال (بدر شاكر السياب ١٩٢٦ - ١٩٦٤م) و(نازك الملائكة ١٩٢٣ - . . .) و(عبد الوهاب البياتى ١٩٢٦ - . . .) و(الزهاري) و النجفي) . وقد تأثر بكلا الاتجاهين المحافظ والمجدد ؛ وإن جاء تأثره بـ (السياب) أجلى وأكثر في قضايا : الغربة وحياة البحر ورحلات السندباد . وتعد قصيدة (السياب) (رحل النهار) منطلقا للفايز في الحلقة السادسة عشرة من (مذكرات بحار) ، وصدى لغيره من شعراء الخليج أمثال (مبارك بن سيف آل ثانى) . وبقي (الفايز) ثلث عمره في العراق إلى أن رغب في الانتقال للكويت ؛ فطاب له المقام فيها منذ سنة ١٩٥٦م حتى وافته منيته غداه تحرير الكويت في السابع والعشرين من فبراير سنة ١٩٩١م من عدوان حكام العراق عليها .

واكتسب (الفايز) شهرة فائقة خاصة في العراق والكويت ، وقد جانيا من نتاجه (قصائد لبغداد) في ديوانه (ذاكرة الآفاق) بينما حظيت الكويت بالنصيب الأوفر من أدبه . وتابع نشر نتاجه في الصحف والدوريات مما ساهم في نهضة الأدب في الخليج ؛ فقد أصدر (النور من الداخل) سنة ١٩٦٦م ، وأهم ما تناول فيه ذكرياته عن حياة الغواصين ، ثم أخرج سنة ١٩٧٠م (الطين والشمس) ، واستمر ينشر فأخرج (رسوم النغم المفكر) و(بقايا الألواح) ، واتسعت تجربته فكتب (لبنان والنوتحى الأخرى) و(ذاكرة الآفاق) و(حداء الهودج) و(خلاخليل الفيروز) و(كتابات فوق الأبواب القديمة) .

راجع : - آل مبارك الدكتور (عبد الله) : الأدب العربى المعاصر في الجزيرة العربية ، القسم الأول ، الشعر في شرق الجزيرة ص ٣٦ ، القاهرة ١٩٧٣م طبعة ١ .

- الطائى (عبد الله بن محمد) الأدب المعاصر في الخليج العربى ١٣٣ - ١٣٦ القاهرة ١٩٧٤م مطبوعات معهد الدراسات والبحوث العربية .

- فهمى الدكتور (ماهر حسن) تطور الشعر العربى الحديث بمنطقة الخليج ١٩٠ - ٢٠٥ بيروت ١٩٨١م مؤسسة الرسالة .

- السالم (يوسف) معجم أدباء وشعراء الكويت ١٥ .

- الوفيان الدكتور (خليفة) القضية العربية فى الشعر الكويتى ٦١ .

- الرومي الدكتورة (نورية صالح) تطور الحركة الشعرية فى الخليج العربى ٣٦٣ الكويت ١٩٨٠م الطبعة الأولى .

لحياة الغوص ، وتصويرا لمغامرات البحار بكل أحداثها ، وانفعالا بحياة البحر ، واسترجاعا لمواقف عاشها الغواصون ؛ فقد ضمن ديوانه (النور من الداخل) مدى انفعاله بحياة الغوص في (مذكرات بحار)[1] . مما يصور معاناة مجتمع ما قبل (النفط) عندما اشتدت أزمات الحياة ، وحالت الظروف دون الاستقرار ، واقتضى الأمر البحث عن لقمة العيش في أعماق الخليج .

و(مذكرات بحار) تعرض لموضوع يتجاوز مجرد الحدث (المعاش) ارتقاء

---

(١) المذكرات Memoires سرد كتاب نثرى لأحداث عاصرها الكاتب مما بقى فكرها فى خياله ، وكان لها تأثير عليه ، وله دور فيها ؛ فتقوم الذاكرة المسترجعة بتجميع هذه الأفكار وتسجيلها . وتهتم المذكرات بالعصر الذى تتحدث عنه وبوقائعه ، وتوليه أهمية أبعد من (السيرة) . وتعد المذكرات ترجمة لحياة المرء بقلمه ، وتشير لغالب الوقائع التاريخية التى شارك فيها الكاتب أو عاصرها أو سمع عنها ، مما له تأثير على حياته الخاصة ، وتحول فى مسيرته .

وشاع فن المذكرات فى العصور الوسطى ، وتجلت قيمته فى تسجيل أحداث التاريخ المميزة . وتختلف المذكرات من حيث مادتها وموضوعاتها ، وطريقة عرضها عن (السيرة الذاتية) ؛ فالعناية فيها منصبة على الوقائع والأحداث التاريخية والاجتماعية أكثر من العناية بتصوير واقع الشخص وذاته . وتصاغ غالبا فى أسلوب نثرى رفيع . وقد تصاغ على نظام قصائد التفعيلة فى الشعر المحدث مثل (مذكرات بحار) ، ويشف بناؤها الفكرى عن غاية ؛ وهى محاولة استرجاع ما فى الوجدان الذاتى ، واستحضار ما وعته الذاكرة من أحداث منفصلة لا رابط بينها ، ولا توضح مدى تأثيرها على ذات الكاتب ؛ ولا مدى انفعال الذات بالموقف ، كما أنها لا تدل على ترتيب زمنى يبرر ما طرأ على الشخصية من تطور وتحول وتغير .

ومن المذكرات ما له طابع سياسى وتاريخى يعنى بتسجيل الأحداث بطريقة موضوعية مثل (مذكراتى فى نصف قرن) لأحمد شفيق ، ومنها ما له طابع اجتماعى يرسم صورة حية للشخصية مع الموقف مثل (مذكراتى) لمحمد مهدى كبة ؛ و(أبو الهول يطير) لمحمود تيمور .

و(مذكرات بحار) تعد من النوع الإجتماعى الذى يهتم بإبراز مقومات حياة الغواصين فى الخليج فى فترة ما قبل (النفط) فى صياغة على نهج الشعر المحدث (شعر التفعيلة) ، وهى أقرب ما تكون لصياغة النثر ولعل (الفايز) استوحى فكرة المذكرات من قصيدة (أحمد مشارى العدوانى) (صفحة من مذكرات بدوى)

كنتُ هنا ، وكان لى بيَت من الشَّعَرَ

راجع : عبد الدايم الدكتور (يحيى إبراهيم) : الترجمة الذاتية فى ألأدب الحديث ص ٣ ، بيروت ١٩٧٤م الطبعة الأولى ؛ فهمى الدكتور (ماهر حسن) تطور الأدب العربى الحديث بمنطقة الخليج ١٩٠ - ١٩١ بيروت ١٩٨١م مؤسسة الرسالة .

للصورة (المثلى) وهى بهذا تعد شكلا من اشكال الأدب الرافض لصور الواقع في محاولة (الانفعال) بما كانت عليه حياة الغواصين الذين أفنوا العمر وسط الموج ، وتحت المياه لا يعلمون وجهة ، ولا ما يخبؤه لهم قدرهم من مفاجآت ، وهم يبحثون عن أقواتهم . وفي رصد دقيق ومفصل لمجتمع الغوص ، وما تحمله من أعباء ومعاناة قبل فترة التغير الاجتماعى بظهور النفط واستخراجه - تجيء (المذكرات) معبرة أصدق تعبير عن حياة فئة عاشت حياة القهر والابتزاز والظلم مهمومة بالبحث عن أرزاقها .

ومن خلال (رؤية ذاتية) متفاعلة مع (الوجدان الجمعي) يصور الغواصين الباحثين عن اللؤلؤ تحت المياه في (الهيرات) ؛ فيرصد أحوالهم ، وما يعانونه من مشاق وهزائم وألام ، ثم انتصارهم على الخوف والضياع والأمواج والعواصف في دلالة على مدى انتصار إرادة الإنسان على قسوة الطبيعة ، وتغلب الخير على الشر ؛ انتصار الحياة بكل معانيها السامية العزيزة بالإيحاء والتمييز بين حالتين في رصد دقيق ومفصل .

(الفايز) من أبرز رواد (الاتجاه الواقعى) فقد تناول المضمون الاجتماعي بوسائله الفنية الخاصة البعيدة عن السرد والتقرير المباشر إلى الرمز والإيحاء ؛ فمزج همومه (الذاتية) بهموم (الجماعة) وعبر بأحساسيسه الذاتية عن مجتمع الغواصين قديما ومجتمع العمال حديثا . على أن حياة الغوص بما تمثله من متناقضات تراوحت بين سعادة وشقاء وأمن وخوف وترحال ووجود وفناء هى محور ما تمثله (المذكرات) التي تعد تسجيلا تاريخيا شبه متتابع لحياة فئة من الناس كادت التطورات الاقتصادية ، وما صحبها من تغير اجتماعي أن تطوي صفحتها ، وتضعها في زوايا التاريخ ، فجاءت (المذكرات) دلالة على ذكريات قديمة قاسية ، وحياة شاقة في مهنة الغوص .

و(المذكرات) تجمع بين هموم الشاعر وهموم جماعته في امتزاج الوجدان (الفردي) بالوجدان (الجمعي) بحيث لا يمكن الفصل أو التمييز بينهما ؛ فأصالة

(الفايز) وتفرده تبدو في محاولته استلهام (روح الجماعة) وتصوير معاناتها التي انتظمت الأسرة بكاملها من زوج وأولاد وآباء . وكان حرص (الفايز) على الجانب (المحلي) في تسجيل دقائق هذه الفترة حتى لا تنسى بطولاتها في إبراز مفارقات الحياة بين ماض قاس ومؤلم فيه الفقر والجوع والمرض ، وحاضر رغْد العيش طيبه ، وبين حياة ملؤها الخوف والقلق ، وأخرى مطمئنة هانئة .

والموضوع الجدير بالنظر في ديوان (النور من الداخل) هو موضوع (مذكرات بحار) فقد أصلت للمضمون الاجتماعى لدى شعراء الخليج ؛ فالروح العامة والتجربة الإنسانية ماثلتان فيها ؛ علاوة على إبراز ملامح الفن الجيد من حسن الأداء البياني ؛ وإبداع التصوير المتنامي الحي المعتمد على المقدرة الشاعرية التي تجعل من (المذكرات) شيئا أرقى من أن تكون مجرد نظم لفكرة أو تقرير مباشر عن مواقف ، أو تعبير تشيع فيه النزعة الخطابية . فصورة البحار فيها تعتمد على الوعي والصدق والعمق ؛ وتتعدى إطار (الذات) المهمومة إلى (الوجدان الجمعي) والبحث عن الجوانب النفسية للبحارة ومواقفهم ومشاعرهم حينما يواجهون المصاعب ويقتحمون الأهوال بمغامراتهم . ولم تكن (المذكرات) مجرد رصد لظاهرة الغوص ، وتسجيل لبواعثها ؛ ولكنه وظف العبقرية الفنية واستلهمها في الدلالة على المضمون الاجتماعي ، واعتمد على التحليل الموضوعي وربط الظواهر المتباعدة في نسق واحد لتنبيء عما خلفها ، ولتساعد على الفهم والتفسير .

وبمقدار ما تكشف عنه (المذكرات) من أحداث ماضية فيها استرجاع للقديم ؛ واستلهام لعنصر الزمان فإنها - كذلك - ترتبط بـ (الحاضر) و(المستقبل) كما ترتبط بعنصر (المكان) بما تمثله من سجل واف يعد وثيقة تاريخية لها دلالتها في المجتمع الخليجي ؛ فضلا عما تقدمه من صور فنية تعتمد على رصد لحياة الغواصين ، ولماض مؤلم لا يخلو من نزعة (رومانسية) بالحنين له واسترجاعه ؛ فالحديث فيها عن (الواقع) من خلال معاناة ومعايشته وتذكره ؛

فقد كتبت في (عصر النفط) والثراء والتمدن لتمثل (عصر الغوص) وحياة الفقر والإيثار على نحو قوله[١] :

مررتُ بالشاطىء الغافي ورملتِـه والصخرِ في الفجرِ أستوحيه أبناءَ
عن السفائن والإبحار عن نغـم لـ (ناهمٍ) يتقفَّى الريح والماء
وعُدتُ والأفق تُبدي لي ملامحه كفًا تُمد على الصحراء بيضاءَ
تأنق الرملُ حتـى صار أضواءَ وفُجِّرَ الصخرُ ألونًـا كما شَاء

وحرص (الفايز) على نشر مذكراته واحدة إثر أخرى في الصحف منذ سنة ١٩٦٤م دون ترتيب ، ثم جمعت - فيما بعد - تحت هذا العنوان (مذكرات بحار) ، وأعيد نشرها ضمن ديوان (النور من الداخل)[٢] . وتضمنت عشرين مذكرة كل منها تحتوي على (موقف) يمثل لوحة أو مشهدا من حياة البحر والغوص ، وما فيه من مخاطر وأهوال ، أو حياة البر والمدينة وما يخيم عليها من حزن وكآبة وفقر ومرض . واتخذ لها عناوين عديدة (المذكرة الأولى والثانية . . وهكذا) عدا المذكرتين : الحادية عشرة فعنوانها (اللؤلؤة) ، وهو عنوان يشير لموضوعها بل ولأغراض الغوص وأهدافه عامة ، والمذكرة العشرين فعنوانها يدل على تمام الرحلة ونهايتها (العودة إلى الأرض) .

وتتابع المذكرات على هذا النحو - يكون في الغالب (وحدة موضوعية) ووحدة (نفسية وشعورية) ينتظمها خيط من (الوحدة العضوية) وخط متواصل ، وممتد طولا وعمقا يبدو حينا متناميا ، وحينا آخر بطيئا في أساليب من التكرار والإعادة والخلط والتعميم . غير أن حرص الشاعر على محاولة الكشف عن الكثير من أسرار عالم البحر ، ومشاق مهنة الغوص وما يحدث من مفارقات ومواقف - كان واضحا في كثير من القصائد .

---

(١) محمد الفايز ديوان (رسوم من النغم المفكر) ص ١٧ ؛ مجلة الدوحة عدد فبراير ١٩٧٦م ص ١٢٢ والقصيدة من البحر البسيط (مستفعلن فاعلن ٤ مرات) .

(٢) عبد الله الدكتور (محمد حسن) : الشعر والشعراء فى الكويت ص ٢٨٨ - الكويت ١٩٨٧م ذات السلاسل طبعة١ .

وتعد المذكرة الأولى مقدمة ينطلق منها (الفايز) ليصور حياة الغواص ومعاناته وصراعه مع القدر ، وقسوة الحياة واضطراب الأمواج ، ونقص المؤونة ، وخوف المجهول ومآسى الغربة والوحشة ، وقد تكاثرت حوله حيوانات البحر من (الدجاج واللخم السود والدول والرماي) وغير ذلك من السمك والعواصف . وتبدأ بحوار خارجى معتمد على أساليب إنشائية بأداة الاستفهام (الهمزة وهل) وما يدلان عليه من معنى التعجب والدهش والنفي . وهذا الأسلوب طلبي يستلزم شيئا ليس حاصلا وقت الطلب فيه تهيئة للنفوس وتنبيه للذهن ولفت الأنظار للجو العام الذي يسأخذ فيه على نحو قوله :

أركِبْتَ مثلي (البُومَ) و(السَّنبوك) و(الشُّوعي) الكبير ؟![1]
أرفعتَ أشرعةً أمامَ الريحِ في الليلِ الضريرِ ؟ !
هل ذُقتَ زادي في السماء على حَصير ؟
من نخلة ماتت ، وما مات العذابُ بقلبَي الدامي الكبير
أسَمعتَ صوتَ (دجاجة) الأعماق تبحث عن غذاء ؟
هل طاردتك (اللَّخمةُ) والسوداء و(الدُّولُ) العنيد ؟

---

(١) المذكرة الأولى ص ٥ والبوم بضم الباء وجمعها ابوام : أشهر سفن الصيد من النقل التجارى ، والسَّنبوك بفتح السين وجمعها سابيك : نوع من السفن القديمة ، والشوّعى : بضم الشين وجمعها شَواعى نوع من سفن صيد اللؤلؤ كبيرة الحجم . والدجاجة سمكة سامة لها شوك تضرب به ، وطولها نحو شبر إلى ذراع ، ولونها أملح مشوب بسواد وحمرة ، وعليها نقط خفيفة فى جسدها اشواك سامة ، وهى فى قاع البحر تشبه الدجاجة الراقدة على بيضها . واللَّخمة بتشديد اللام وإسكان الخاء وفتح الميم : سمكة كبيرة والجمع لُخُم بضم اللام والخاء : سمكة مستديرة الشكل ولها ذيل يسمى (اطبيجى) ، وإذا ما اعتلت ظهر غواص أودت بحياته . والدول بتشديد الدال وإسكان اللام : حيوان هلامى مستدير ؛ وله زعانف طويلة (شراشف) ولونه يميل للحمرة مع بياض ، وجسمه شفاف أشبه بالجيلى والبالوظ ، ويسمى (قنديل البحر) ، أما الماي فهو من قواقع البحر صغير الحجم ولونه أسود ، وله شواك غليظ .

راجع الشملان (سيف مرزوق) : تاريخ الغوص على اللؤلؤ فى الكويت والخليج العربى ١ /٤٠٦ - ٤١٩ - الكويت ١٩٧٥م الطبعة الأولي .

وهل انزويتَ وراءَ هاتيك الصخور ؟
في القاعِ و(الرمَّاي) خلفَك كَالخفير
يترصَّدُ الغوَّاص ؟ هل ذُقتَ العذاب
مِثلي ، وصارعْتَ العُباب ؟

وتوالى أداتي الاستفهام (الهمزة وهل) على هذا النحو يفوق أهمية مجرد الإخبار عن شيء ما إلى (التجوز) به للدلالة عن التعجب والدهش والغرابة مما حدث ، وإلى الدلالة عن نفسية الغواص ، وما فيها من حيرة وتعجب . والتساؤلات ثم لا تصف أمورا خارجية ؛ لكن الاستفهام يمثل (العالم الداخلي) والنفسي ، وما يحيط بهما من مشاعر وأحاسيس ، ويمثل التجدد والتغيير في كل قراءة ؛ فهو أكثر إضاءة وتنويرا للمحتوى ، وأجلى انكشافا للأمور الخفيفة المتوارية مما انطوت عليه النفس الإنسانية .

وجيء بأداة الاستفهام (الهمزة) لغاية طلب التصديق ، وتعيين النسبة (نسبة ركوب المخاطب للسفينة ، ورفعه للأشرعه ، وسماعه صوت الأسماك المخيفة) . وجمال الأداء ودقته في أن (الهمزة) ثم تعينت لـ (التصديق) فقد وليتها الجملة ، وهى فعلية توحي بالتجدد والحدوث والحركة المستمرة (أركبت) ؟ (ارفعت) ؟ (أسمعت) ؟ . كما أن أداة الاستفهام (هل) وضعت لإفادة (التصديق) هل ذقت زادي في السماء على حصير ؟) (هل طاردتك اللخمة السوداء والدول العنيد ؟ هل انزويت وراء هاتيك الصخور ؟) . والمخاطب هنا كل من يتصور معه خطاب في حوار مع الغير أيا كان ذلك الغير . ولم يجيء بعد أداة الاستفهام بـ (المعادل) خوف التناقض ؛ فجواب الاستفهام غير موجود ، ولا يتعين أن يكون جوابا منفيا أو مثبتا ؛ لأن الاستفهام خرج عن معناه الحقيقي لمعنى آخر دل عليه (الموقف) وهو التعجب والدهشة ؛ هذا فضلًا عن الصور البيانية الدالة على الحالات النفسية والشعورية كتصوير الليل ضريرًا والنخلة ميتة وصورة العذاب يقظًا بقلبه ، والانزواء وراء الصخور بينما (الرماي)

يرصد الحركة كالخفير . .

ثم يمضى (الفايز) في تصوير حالات البحار وهو بين يأس وأمل في مصارعة الأهوال ، وصنوف العذاب لا في قاع الخليج حيث صنوف الأسماك المتوحشة تنتظره لتهاجمه حسب ؛ بل حياته فوق سطح السفينة في ظلام الليل ، وشدة البرد ، وهو غارق في كوم من المحار يفتش فيه عن اللؤلؤ ، شبه عار إلا من إزار تفوح منه رائحة المحال ، ويقابل هنا بين حالات متناقضة ؛ موت النخلة الدال على فقدان الأمل والعذاب بقلبه الكبير ، وكذلك بين حالته في ظلمات الليل وشدة البرد يبحث عن الآلىء لتلك السيدة المرفهة التي تتكىء على وسائد من حرير مع سيدها تنتظر البحار أن يكمل لها قلادة اللؤلؤ .

و(الموقف) ثم مقابلة بين عالمين متناقضين غاية التناقض ، عالم بائس حزين متشائم مشغول بآلامه ، وبالبحث عن رزقه ، وهو عالم الغوص والبحث عن اللؤلؤ من أجل إسعاد غيره ، وعالم مُستأنس متفائل منصرف لملذاته سعيد بثرائه وبأمواله وهو عالم (الطواشين) و(المسقمين) وأصحاب الترف والحلى ، وشتان بين العالمين .

أمسكتُ مَفْلقـــــــــــــة المحارْ
في الفجر مرتجِفًا ، لتكتمل القلادة
في عنق جاريةٍ تنـــامُ على وِسادة
ريشيَّةٍ في حُضن سيدَّها . ورائحة المحار
بـإزارِكَ البحـريِّ يعبـق ، والبحـــار
مملـــــوءةدُرًا سيملكـــــــه سِواي[1]

وتنوع الأسلوب ، وتنقل (الفايز) ما بين ضمير المتكلم (أمسكت) إلى ضمير المخاطب (بإزارك) ، ثم الرجوع للحديث عن النفس (سيملكه

---

(١) المذكرة الأولى ص ٦ .

سواي) . . كل ذلك يوحى بالاهتمام والتنبيه والالتفاتات المتنوعة بين الضمائر ؛ كما أن استخدامه للمعاني (التراثية والأسطورية) لتأكيد (الموقف) ، وبعث المشاعر الدفينة قائم على (توظيف التراث الأسطورى) واستخدامه لا كمجرد تعبير خال من الرموز والإيحاءات النفسية والفنية ؛ بل قصد إليه ليشكل إطار فنيا جديدا ؛ ولذا فالغواص يعد نفسه وسط هذه المغامرات بمثابة (السندباد البحري) في حركته وفي تحمله الأهوال ، وفي تطلعاته وآماله ، وفي جسارته ومقدرته على تخطي الصعاب ، ثم العودة منتصرا إن قدرت له عودة ، أو بقاء الذكرى إن طواه البحر .

ومع أن في طبع كل إنسان بعضا من ملامح ذلك (السندباد) ، وبالنفس شيء يشبهه[١] ؛ وإن لم يطوف مثله في الآفاق ، وإن لم ينزل البحار ، ويقطع الوديان ، ويقاسي الأخطار ؛ فالطموح الذاتي للإنسان شيء مركوز بالنفس يغريه الصعب ، ويستجيب للمجهول ، ويتعرض للأهوال والمصاعب في حركته وسكونه ؛ فيجاسر ، ويستعذب التعب على الراحة ، ويألف حب المعرفة ، وهواية الاستطلاع مهما تكلف وكابد - إلا أن هذه السمة ربما تكون أكثر انجلاء ، وأعظم خطرا عند (بحارة) الخليج العربي بالذات ؛ ففيهم كثير من خصال (السندباد) وملامحه ، تلازمهم ويلازمونها[٢] .

---

(١) قطب (سيد كتب وشخصيات ٢٢٢ - القاهرة ١٩٨١م دار الشروق الطبعة الثانية .

(٢) منطقة الخليج عبر تاريخها الطويل صورا مختلفة للسندباد سواء ما كان منها اسطوريا مثل (جيلجامش) أو حقيقيا مثل (شهاب الدين أحمد بن ماجد) الذى كان دليلًا للمستكشف البرتغالي (فاسكو ذي جاما) فى الطريق من شرق أفريقيا إلى الهند ١٤٩٧م والذي قال فيه مبارك بن سيف : ٨٦ - ٨٨ أنشودة الخليج :

هذا (ابن ماجد) هل نسيت شراعه ... علم البحار ، وكم علم العلماء
عشق الشطوط فصاغ فيها لحنه ... والموج عشق والهوى إيماء
مسكت يداه السابحات فتيما ... من (جلفار) هفا إليه نداء
كنت الدليل تسوق دي جاما) إلى ... بر الأمان أتؤمن الرقطاء
ندم تجاذبك الغداة إذا ابتلي ... بحر هويت ، وأنت منه برء

ويعد (السندباد) رمزا للإنسان المجاسر الذي يناديه المجهول فيستجيب ، وتلاقيه الأخطار فيثبت أمامها ، ويتعرض للأهوال في جميع رحلاته ، ثم لا يبالي بالنهاية أوقع عليه القضاء ، أم وقع هو على القضاء ، أحصل على الانتصار أم ضاع وسط البحار ؟ لكنه دون شك سينتهي إلى شيء إن لم يكن العود الحميد فهو حب المغامرة ، ويبقى الإنسان (السندباد) تناديه الأخطار فرب على الراحة ، والمغامرة على التقاعس ، والثورة على الفقر ؛ فيعود لمغامراته وراء المجهول ليرتبط دائما بالعالم الأسمى ؛ عالم البحث والمعارف والتحمل ومواجهة الأخطار ؛ لاكتشاف المجهول والانتصار على الطبيعة ، وتخليد الذكرى .

ما يعود (سندباد الخليج) فيفتقد مثلما هو حال بعض الغواصين ، يجوبون الخليج دون التفات لمعادلة المكسب أو الخسارة والانتصار أو الهزيمة والبقاء أم الفناء ؛ وإنما سعيا للمغامرة حتى ولو اختطفهم القدر ، وطواهم الغيب . ولذلك فأسطورة (السندباد) إنما هي (مواقف) في مواجهة قوى الطبيعة ؛ على نحو ما يصوره (مبارك بن سيف آل ثاني) يخاطب الخليج :

(السندبادُ) هنا ، وماؤُك ماؤه ... خاضَ الغمامَ ، وهمُّه الضراءُ
حملتْ أساطيرُ الحياةِ شراعَهُ ... خلفَ البحُور ومالَها أسواءُ
فإذا أتاك ففي الخليجِ مقامُهُ ... يحكي خيالًا دونه العنقاءُ
ويجيء صوتُ (السندباد) كأنما ... عبر الزمان فدوَّت الأصداءُ :
السندبادُ أنا حكايةُ عاشقٍ ... للبحر قد سعِدتْ به الأنواء
رُدْتُ البحار ، فعانقتْ أركانُه ... ذلك الشراعَ ، وأنجم ندماءُ
فكأنَّ شرّعي في المحيط مثيلها ... دُورٌ حوتْها بُردة زرقاء
ابن الخليج أنا ، أجوبُ مسالكًا ... والبحر صخب هادر ونِداء

= ومثل (السندباد الجوي) (صقر الخليج) حمد ابن الشيخ علي جبر آل ثاني الذي لف العالم بطائرة صغيرة ذات محرك واحد ١٩٨٩م ، ومثل (السندباد البري) الأخوين (عابد وصالح الشمري) اللذين قطعا المسافة من عمان للمغرب على بعيرين ١٩٨٨م .

فأغيبُ خلفَ الأفقِ في ظلماتِه والموج طـاغ إنـه الحزمـاءُ
إني المليكُ هنـا وإني سيّـدٌ تلكَ الجزائر والبحور سِبـاءُ[١]

ومن ثم تحولت أسطورة (السندباد) الخليجي في عالم البحار من رمز للمغامر الجسور (العائد) بالخير وبالمعارف بعد الاكتشافات والانتصارات إلى رمز للمغامر (الغائب) الذي طواه القدر وراء أفق بعيد ، وعالم مجهول في الغالب ، وإذا كانت رؤية (الفايز) للغواص الخليجي على أنه رمز (للسندباد) القادر على تغيير كل شيء ، والانتصار في كل حال فهو ذلك (السندباد) الذي :

« تتهيّبُ الأسماكُ منه والبحار »
« يترصّدُ الآفاقَ ، يبحثُ عن ضفاف »
« يُعيد للدنيا حديثَ (السندباد) »

في مثل قوله :

. . . . . يا دنيا العذاب
ما ذاق مُرَّكِ مثل بحّارٍ تقاذفُه العُباب[٢]
عريانَ إلا مِنْ سواد
تتهيَّب الأسماكُ منه ، والبحار
أحْنى من الأرضِ التي مَحَلتْ[٣] ؛ فلا عِطر يَضوع
فيها ، ولا نَبتَتْ كروم
مهما تلبَّدَتِ الغُيوم ، وأمطرت كلّ السماء
تبقى ككفٍّ بخيلةٍ تأبى العَطاء
أوّاهُ[٤] يا أرض الحرائِقِ والسَّموم

---

(١) مبارك بن سيف آل ثاني : انشودة الخليج ٨٣ - ٨٦ .
(٢) رمته كثرة الأمواج واصطخابها .
(٣) محلت الأرض : أجدبت .
(٤) الأوّاه : الكثير التأوه : التوجُّع والحزن والشكاية .

البحرُ أحنى من ضفافِكِ ، والشِّراع
أذرى إلَيَّ من الصَّنَوْبَر[1] يا بحار :
المِلحُ فيكِ ألذُّ من عِنبَ الدوالى[2] في المدينة
فخُذى شراعي يا رياحُ . . خذي السفينة
سأعيدُ للدنيا حديثَ (السندباد)

أقول : إذا كانت رؤية (الفايز) للغواص على هذا النحو وأن البحر أحنى عليه من أرض مثل كف بخيلة تأبى العطاء ؛ فإنه يراه في حالات مجرد (راحل) طوته الغيوب و(غواص) أخذه البحر ، ولم يرده ، بعد أن ألف الناس عودته من مغامراته منتصرا ؛ فـ « شتان بين خيال مجنون وعملاق تراه » « يطوي البحار على هواه » ، وكيف يعود الغواص وقدره أن يكون مأواه البحر ما دام حيا « ما دمت حيا فالبحار مأواي ، أو باع قصير في الأرض حين أموت » « الجوع فوق الأرض والريح الخؤونة في البحار » .

والنص يعتمد على أسلوب النجوى وحوار الذات في إثارة يتجلى فيها الإحساس بالخوف والضياع وفقدان الأمل والاستقرار على الأرض ، فالجوع والفقر هو من نصيب الأرض الحزينة التي هي « كهف الهموم ، ومثل ماخضة مات جنينها ، أو أرض أكل الدود قمحها » فلا سبيل للبقاء عليها والانشغال بها والتفكير في العود إليها مهما كانت عذابات البحر من أسماك تبتلع ، وغرق ينتظر . إن (السندباد) في نظر (الغواص الخليجى) يمثل صراعا غير محسوب العواقب ، وآمالا أقرب منها الفقد والضياع ، وكلا الأمرين شقاء وعذاب فوق الأرض أو تحت المياه فـ :

« ماذا يكون (السندباد)

---

(١) أذْرى إلَيَّ مِنَ الصَّنوبر : أكثر ميلًا وقربا ونشرًا للرائحة والجمال من الصنوبر ، وهو شجر يزرع للزينة وللرائحة من المخروطيات الجبلية .

(٢) عنب طائفيٌّ أسود اللون فى حمرة قانية .

شتان بين خيال مجنون وعملاق تراه
يطوى البحار على هواه
بحباله
بشراعه
بإرادة فوق الغيوم
بيد تكاد عروقها الزرقاء ترتجل النجوم »

إن الخطاب للأرض التي أخرجته ، ثم ألجاته للحاجة والسعي نحو عالم مجهول فيه استدعاء للمواقف التراثية ، واستلهام للحدث وللشخصية (الكهف - قابيل) ولأشياء أخري (القمح - الدود - المصباح) فيما يشبه (إسقاط المشاعر) الحزينة في عدم تقبل الأشياء المقدمة ، وما في ذلك من الأزمة النفسية ومعاناة شجن الإنسان ، والتمزق والإحساس بالضياع وإظهار هموم الذات وهموم الجماعة فينادي الأرض :

يا كهف الهموم
من أمس أمس ، ولم تزالي مثل ما خضنه بها مات
الجنين
لا السحر ثبط من جماحك لا ، ولا الحق المبين
من عهد (قابيل) وقمحك كل عام
يسطو عليه الدور . . يا أرض الظلام
مصباحى النفطي يلهث مثل عيني لا تنام
تترصد الآفاق ، تبحث عن ضفاف
وتهب عاصفة فتطفئه ويرتفع (النهام)
ضوء الشموع
من وهج عينيها ؛ فذوبي يا ضلوع
والجوع والجدري والأرض الحزينة

وترصد الأسماك للبحار في غرق السفينة
ما دمت حيا فالبحار
مأواي ، أو باع قصير
في الأرض حين أموت[١]

و(الفايز) في حديثه عن (السندباد) يتخذ (بدر شاكر السياب) مثالا في قصيدته (رحل النهار)[٢] ؛ من حيث موضوعها ، وما يدور فيها من حكاية (السندباد) ، ومن حيث الصياغة والنغم على نحو قول (السياب) :

رحل النهار
ها إنه انطفأت ذبالته على أفق توهج دون نار
وجلست تنتظرين عودة (سندباد) من السفار
والبحر يصرخ من ورائك بالعواصف والرعود
هو لن يعود
رحل النهار
فلترحلي هو لن يعود

.....

خصلات شعرك لم يصنها (سندباد) من الدمار
شربت أجاج الماء حتى شاب أشعرها وغار
ورسائل الحب الكثار
مبتلة بالماء منطمس بها الق الوعود
وجلست تنتظرين هائمة الخواطر في دوار

---

(١) الفايز (محمد فايز العلي) ديوان النور من الداخل ١٢٥ - الكويت ١٩٦٦م مطبعة حكومة الكويت طبعة١ .

(٢) الحاوى (إيلياء) بدر شاكر السياب : شاعر الأناشيد والمراثي ١ /٦٨ - ٧٠ بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، الأعمال الكاملة لبدر شاكر السياب ص ٢١٢٥ ، وها : حرف تنبيه .

سيعود . لا . غرق السفين من المحيط إلى القرار
سيعود . لا . حجزته صارخة العواصف في إسار
يا (سندباد) أما تعود ؟ !
كاد الشباب يزول . . تنطفىء الزنابق في الخدود
فمتى تعود ؟ !
. . . . .
آه متى تعود ؟ !
رحل النهار
والبحر متسع وخاو لا غناء سوى الهدير
وما يبين سوى شراع رنحته العاصفات وما يطير
إلا فؤادك فوق سطح الماء يخفق في انتظار
رحل النهار
فلترحلي . . رحل النهار[1]

وتصور المذكرة الثانية عودة الغواص يرنو لمعالم المدنية من بعد ، وقلبه مضطرب خوفا من مفاجآت الأحداث لأهله ووطنه ، وهو في غربته بلا وطن ولا مدينة في دنيا غريبة بحرها قبر بلا حد ، برها يعيش في ألم وفقر ، وتبدأ المذكرة بتمهيد يغيب فيه في ذكريات ماضيه :

الشمس فوق السور تشرق مثل قنديل كبير
تهدى خطانا مثلما كنا على ضوء النجوم
في الليل تسرى عبر هاتيك البحار
أيام كنت أعيش في الأعماق ، أبحث عن محار

---

(١) الأعمال الكاملة لبدر شاكر السياب ٢١٥ . والقصيدة على تفعيلة (الكامل) متفاعلن موزعة على أسطر ، والألق : لمعان البرق دون مطر ، وهو البرق الكاذب الخادع الذي لا مطر معه . والزنابق مفردها زنبق وهو طيب الرائحة من الفصيلة الزنبقية . رنحته العاصفات : أمالته الرياح الهوج الشديدة .

لقلادة لسوار حسناء ثرية
في الهند في باريس في الأرض القصية
أيام أن كنت بلا مدينة
بلا يد تحنو علي ولا خدينة
إلا حبالي والشراع
ويدي المقرحة الأصابع والضياع
والريح والأسماك في القاع الرهيب
غرثى تطاردني بعالمها الغريب
عن عالمي القاسي السخيف
يا بحر . . يا قبرا بلا لحد ويا دنيا غريبة
اجتاز عالمها المخيف بروح بحار كئيبة
أبدا يغني للسواحل ، والعيال
يترقبون قدومه بعد المحال
ويعود من رحلاته كيما يعود
للبحر والأسفار والدنيا كفاح
ضد المجاعة والرياح
الجوع فوق الأرض ، والريح الخؤونة في البحار
وتظل زوجته هناك
بلا سوار
وبلا قلادة[1]

وعلى هذا النحو تمضى المذكرة في تصوير حالة الغواص وهي حال أقسى ما فيها أن الغواص يمضى لأحد أمرين مدفوعا - على الرغم منه - إما نحو الجوع

---

(١) الطائي (عبد الله محمد) مرجع سابق ,٧١ - ٧٢ - والقصيدة على تفعيلة (البحر الكامل) موزعة على أسطر شعرية .

فوق الأرض . . أو الريح الخؤونة وتلاطم الأمواج في الخليج . والمذكرة الثالثة تعرض لمشاهد العودة ؛ فعندما تقترب أيام الخريف يهيج البحر ويعلو الموج ؛ لكن ما يلبث خوف البحار أن يعود بعد ما ألف تداول الأيام بين عسر ويسر وخوف من البحر ، وأمان على الشاطيء والمذكرة الرابعة تعرض لحالة التحول من حياة البؤس للنعيم . ومن التعب للراحة ؛ وهو يخاطب آثار بيته :

يا نار موقدنا بمنزلنا القديم
ما زال دفؤك في عروقي مثل آثار الجراح
في صدر والدي الضرير
قنديل عينيه أضاء لي الطريق
وجراحه مثل الهوامش في الطريق . الشمس . . يا
وطن البحار
يا عندليب الفجر . . يا عطر القرنفل يا سماء
الرمل أورق بالدموع وبالدماء

وتعرض المذكرة الخامسة لما سبق أن تحدث عنه في عودة السفن يوم (القفال) والجميع مشغول البال عن أهله وديارة ، وهو عند سكان الخليج يوم مشهود « إذ تحتشد المدينة على الشاطىء في انتظار بنيها ؛ فنجد الفرح ، وخيبة الأمل والظفر والفجيعة في لحظة واحدة ، ومشهد واحد »[1] .

وفي المذكرة حديث يكاد يكون مكرورا عن الرحيل والعود للبيت الخالي الذي افتقد الحبيبة (طيبة) بعد ما قضى عليها (الجدري) الذي حل بالمدينة عندما غاب الرجال في البحر .

وتتوقف المذكرة السادسة عند حدث تاريخي وطني ، يصور معركة

---

(١) عبد الله الدكتور (محمد حسن) الحركة الأدبية والفكرية في الكويت ١ /٤٧ - ٤٨ الكويت ١٩٧٣م طبعة١ ، دمشق .

(الجهراء)[1] التي أبلى فيها الكويتيون بلاء حسنا دفاعا عن عرضهم وكرامتهم . وهذه الحرب كانت منطلقا لاظهار ملامح النفس العربية على سجيتها في التسامح والصبر ، وعدم الانصهار داخل فكرة جامدة .

ولما كان جفاف منابع المياه ونضوبها إحدى مشكلات أهل الخليج ؛ مما ولد إحساسا فيه مرارة وألم لدى الشاعر عرض له في المذكرة الثامنة .

وفى المذكرة التاسعة تعاوده الذكريات إلى أيام (طيبة) تلك الحبيبة التي لا يفارقه خيالها ؛ فهي رمز العطاء والبذل في وقت ضنت فيه الحياة بالقليل ، وسلبت الكثير ، فلم يبق على وفائه إلا حبيبته (طيبة) التي اختطفها الموت . وفي ذلك تتجلى فلسفته تجاه الحياة والكون والفناء والموت فيقول فيها :

وريح الحياة
تعطي القليل : لتأخذ الشيء الكثير
من رحلة العمر القصيرة

وفى المذكرة الحادية عشرة (اللؤلؤة) يخلص فيها للحديث عما يبحث عنه ، وعما أخرجه من وسط أهله . إنها حديث عن اللؤلؤة التي عثر عليها بشق الأنفس ، وعن مصيرها فهي ليست ملكه ، إنه جامع لها ومفتش عنها لغيرها . ومع أنه أولى بها من غيره إلا أنه يبقى دائما محروما منها : لأنه يبحث عنها لغيره ، لحسناء غنية في بلاد الشرق أو في بلاد الغرب .

---

(١) وقعت في ١٠ أكتوبر ١٩٢٠م في عهد الشيخ سالم بن مبارك المنوفي ١٩٢١م ، وقد نشبت بين طائفة من الوهابيين (الإخوان) وأهل الكويت ، ويقال إن عدد الكويتيين كان لا يزيد عن ألف وخمسمائة مقاتل يواجهون أربعة آلاف وهي معركة محدودة الأثر والإقليم كانت الغلبة فيها للكويتيين ، حافظوا على استقلالهم ، وعدم التبعية للدولة الوهابية فى نجد والحجاز ، ورفضوا التمسك بالمذهب الوهابى في تشدده ، كما رفضوا الإقرار على أنفسهم بالكفر لمجرد أنهم يتسامحون في تدخين (التبغ) ، وأعطت دلائل علي حرية العربي دون قيد متشدد .

راجع : عبد الله الدكتور (محمد حسن) الحركة الأدبية والفكرية في الكويت ١ /٢٩ - ٣٠ .

وهنا تتداعى الذكريات ، ويعاوده حديث الألم والشقاء ويكرر ما ذكره فى المذكرة الأولى :

أيام كنت أعيش في الأعماق . . أبحث عن محار
لقلادة لسوار حسناء ثرية
في (الهند) في (باريس) في الأرض القصية
أيام كنت بلا مدينة
بلا يد تحنو علي ولا خدينة
إلا حبالي . . والشراع . . ! !

وتأتى المذكرة الثانية عشرة وما بعدها حديثا عن السفر والتطواف في الخليج وإفريقيا والهند . . وهكذا ، وهو حديث يكاد يكون مكررا ، حتى الحلقة السادسة عشرة ؛ فيضمنها قصة ليلة من الليالي وسط أمواج الخليج ، وفي ظلمة حالكة ، والسفينة ملأى بالناس وكانت الوجهة إلى (زنجبار) فيلمح فتى يلقى بنفسه فيحاول إنقاذه ؛ لكن يدرك أنه أنقذ فتى (عمانيا) فيتهم بأنه وراء موت الآخر (الهندي) بينما السفينة تشق طريقها إلى زنجبار[1] :

في ليلة سوداء كالكهف الكبير
كانت سفينتنا الحزينة وسط أمواج الخليج
مملوءة ببضائع التجار والمتشردين
والباحثين عن الرغيف
والهاربين من المجاعة كالهنود
وكالمهارى الضائعين على الخليج

وينتقل من هذه المقدمة للحديث عن ذلك الفتى الذي أبصره يتهاوى في

---

(١) راجع آل مبارك الدكتور (عبد الله) : الأدب العربى المعاصر في الجزيرة العربية ، القسم الأول ص ٤٨ - ٤٩ القاهرة ١٩٧٣م .

ظلمات بعضها فوق بعض ، فيلقى بنفسه لينقذه :

عيناه تبرق كالمواقد وسط غاب
والصحاب موتى من النوم العميق[١]
إلا أنا والموج والأشباح والنجم البعيد
وشعرت بالخوف القريب
كأن في عينيه عملاق البحار
من الغزاه الطامعين

وفى نهاية المذكرة يظهر البطل ابن خليج فينقذ الغريق العماني ، وتمضي الرحلة إلى زنجبار وثمة (إسقاطات) عن الظالمين والمظلومين وهي تصوير لموجات من الصراع بين فئات من الناس :

القاتلون سيقتلون
وفي السما[٢] رب سيثأر للضعيف إذا ازدراه الأقوياء
وكما يُشقُّ القبر عن صوت رهيب في الظلام
فوق العباب نداء إنسان يموت
وبلا انتظار وقبل كل الحاضرين
ألفيت نفسى في الخليج ورحت أسبح مثل تمساح صغير
يتفقد الأمواج يسألها ، وتبرق عن قريب
قطرات ماء كالدموع
ويد يمد بها العباب مثل اللسان
ورفعت رأسي آن ذاك كسلحفاة في الفرات
ومسكته وهمست واللهفات في صدري فقال :
أمن العذاب إلى العذاب ؟ !

---

١) الوزن هنا مضطرب وحقه وصحابه .

٢) يضطرب الوزن أحيانا كما هنا والسطر الذي بعده .

ألقيته فوق السفينة مثل مصعوق . وباركني الصحاب
أنقذت روحًا ، سوف يجزيك الإله
وفي الصباح شهق الجميع ؛ لأنه أمر عجاب
وضحكت في سري ، لقد كان الغريق فتي (عمانيا) يقال له (حسين)
قذفته عاصفة البحار من السفينة للعباب
وغريقنا (الهندى) مات ، وربما أكلته أسماك البحار
في الليل ، وابتسم الجميع
وكلخمة[1] في البحر أعياها المخاض
شقت سفينتنا العباب لـ (زنجبار)

ويتكرر حديث الغريق في موقف آخر ، وهو تكرار يكشف عن عدم ترابط حلقات المذكرات ؛ فيقول عن الغريق (الهندي) حين شاهد انتحاره ، وعجز عن انقاذه :

وصحت من أعماق قلبي . . أنقذوه
نفض العباءة حين يعلوها الغبار
ماذا ؟ وأبرقت الجسوم العاريات
وأجبتهم : قد مات . . مات
وتطلعوا للبحر كالمتشككين
البحر أسود كالزنوج ، وفي الفضاء

---

(١) اللخمة سمكة معروفة عند العرب بهذا الاسم بتشديد اللام وإسكان الخاء وفتح الميم والجمع لخم بضم اللام والخاء ، وهي مستديرة الشكل ولها ذيل طويل كالسوط ، ولها شوكة سامة ، ومنها الكبير الشكل ويخافه الغاصة .

الشملان (سيف المرزوق) تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت والخليج العربي ١ /٤٠٦ - الكويت ١٩٧٥م (الطبعة١) مطبعة حكومة الكويت .

ضوء النجوم يموت قبل وصوله ، وسراجنا الدبق
الصغير[١]
هيهات يكشف من ظلام مثل صدر المستريب[٢]

والتصوير الفني هنا له دلائلة باستخدام صور مكثفة ممتدة الظلال ؛ فالبحارة استيقظوا في سرعة منتشرين كهيئة غبار كثيف يتجمع من نفض عباءة . وسؤالهم وحيرتهم ماذا في الأمر ؟ وقد أبرقت جسومهم ثم رد السؤال قد مات . وتتلاحق الصور (البحور أسود كالزنوج) و(ضوء النجوم يموت قبل وصوله) والتعبير عن خفوت الضوء وتلاشيه بالموت ، (وسراجنا الدبق الصغير هيهات يكشف من ظلام مثل صدر المستريب) . إن التعبير ليس في حاجة إلى تأكيد القدرة على التصوير والإيحاء والرمز ، فدلالة الحدث راجعة إلى البحار ذاته ، فهو الفدائي والمفتدي ، وهو المنقذ والضائع . والبحار يحكي عن معاني الحزن الحقيقي ؛ فهو لا يعرف للسعادة معنى ، ولا للخير طريقا منذ أدرك معنى الحياة :

تحت العواصف . . كان عمرى لا يزال
في قمة العشرين ، أو سنة يزيد من العذاب
ورد بلا عطرٍ كأشجار الصخور

وهكذا تمضي المذكرات إلى (تيار الوعى) ؛ فالحديث عن الماضى حيث معاناة فترة الصبا في النشأة الحزينة المؤلمة ؛ الكتاب ورعب الأطفال من ضرب سيدنا ؛ وتشوقهم للأساطير والحواديت التي تحكيها الجدات بما فيها من مغامرات الأجداد العائدين من زنجبار وشرق أفريقيا والهند . . وفي هذا الماضي تمتزج ذكريات الأسى بذكريات الحب والخير فيعاوده الحنين لقصة زفافه على (طيبة) .

وتختم المذكرات بالعودة إلى الشاطيء حيث الأمان والسلام ويشعر البحار

---

(١) الدبق : الملازم لنا الذي لا يفارقنا .

(٢) عبد الله الدكتور (محمد حسن) : الشعر والشعراء في الكويت ٢٩٦ - ٢٩٧ الكويت الطبعة الأولى ١٩٨٧م ذات السلاسل .

بالحب والطمأنينة ؛ حب كبير يجمع الوطن والأهل والديار والاستقرار بعد طول معاناة وصراع مع الأحداث . إنه انتصار الإرادة وانتصار الحياة .

نحن هنا تحرقنا الشمس ولا تضيؤنا
والأرض كالأثداء
حليبها السموم والأقمار
يخنقها الجدار
سأعيد للدنيا حديث السندباد
ماذا يكون السندباد ؟
شتان بين خيال مجنون وعملاق تراه
يطوي البحار على هواه
بحباله
بشراعه
بإرادة فوق الغيوم
بيد تكاد عروقها الزرقاء ترتجل النجوم[1]

و(الفايز) يبدي مشاعره ، ويفيض بهمومه إبداء حقيقيا ، ويخلق مجالا للتوافق بينه وبين العالم الخارجى بالتنسيق بين الصورة (الزمانية) و(المكانية) في محاولة لتشكيل الطبيعة والتأليف بين عناصرها من جديد ، وإخضاعها لعبقرية المخيلة وتشوف النفس .

ومعايشته لموضوع (الغوص) أضفت عليه من ذوب وجدانه وانتهت به إلى كونه حكاية تمثل (وجدانا جمعيا) معتمدا على بطولة الجماعة بكل ملابساتها المفرحة والمحزنة واليسيرة والشاقة ، وحديثا متصلا عن البحار والمحار والأصداف والسفن ، وأنين الصواري ، وتشابك الأشرعة وشدة العواصف ؛ فتنكشف

---

(١) النور من الداخل ١٢٤ ، وارتحلت الغيوم زينتها وسرحتها وسوتها .

نفسية البحارة وطباعهم من حب وتسامح ومسالمة ومثابرة وإيمان ورضا ؛ فهموم كسب الرزق سمت بهم فوق الصغار . وهم يتخذون من الخليج وكل ما فيه من حيوانات خلا وفيا ؛ حتى في حالات الهياج والثورة . وحيوانات البحر مهما بدت قاسية وحشية فهي صديقة الغواص الذي طالما ترددت في صدره أنشودة يحلو له أن يتغنى بها عندما تشتد عليها الكروب :

أنا الغواص في البحر حليف الجد والصبر
أعيش مع الرياح الهوج في كر وفي فر
فقد علمني دهري بالجرأة والصبر
وزودني بقلب طامح للعمل الحر
أنا ابن الموج والأنواء والظلمة والفجر
أنا من صارع الريح ، وغنى أول الدهر
أرى الحيتان في أغوارها سباحة تجري
فلم ينتابني ضرب من الرهبة والذعر
تسير سفينتي في الليل بين الموج والصخر
وقلبي هانيء يخفق بالآمال في صدري
أصيد اللؤلؤ النادر في الدنيا من القمر
وأهزج بالنشيد الحلو في الليل في الفجر
أناجي بعد طوال العهد أحبابًا ورا البحر[1]

والخيط القصصي في المذكرات يوحي بحركة مضطربة ومفاجآت وأحداث تشف عنها في لغة شاعرية لا تعتمد على سرد الوقائع بقدر ما تعيد تمثل الحدث ذاته ، وقد تداخل فيها (الوجدان الجمعي) مع (الوجدان الفردي) في مزج

---

(١) الخليفة (أحمد محمد) من قصيدته (أنشودة الغواص) والقصيدة من (البحر الوافر المجزوء) مفاعلتن مفاعلن مرتين ، وأبياتها مدورة .
الطائي (عبد الله بن محمد) مرجع سابق ص ٦٤ - ٦٥ .

بين الواقعية والرمزية . وإن ما يصادفه الغواصون من مفاجآت ، وما يصيبهم من كوارث في عالم محزن كئيب وغربة وخوف من المجهول وصراع مع الطبيعة - يقترب بها من فن الملاحم[1] : خاصة في مفاجآت الطبيعة ودوران الصراع فيها ما بين خير وشر وبقاء وهلاك .

وإذا كان الفن الملحمي قديما قد اعتمد على مخيلة بعيدة المدى تنطلق لعالم أرحب ، وتستند لسرد أحداث لموضوعات وطنية تتناول قضايا عامة ، وتمتزج فيها الأوصاف والشخصيات ، والمغامرات الخيالية والأسطورية ، وصراع الإنسان مع القدر ، ويدور حوارها في تسلسل حلقاته بلغة مزينة ومعتمدة على إمكانات الصياغة لتثير العواطف الإنسانية ، ولترسخ الأحداث القومية الفاصلة في تاريخ الشعوب لربط الحاضر بالماضي . . الخ - فإن ملاحم (مذكرات بحار) وخصائصها تكاد تنحو المنحى ذاته ، وربما تشابه بعض خصائص الملاحم أو تقاربها بما يمكن أن يستصفى منها من بعض عناصر الفن المتوفرة لها ؛ كتصوير بطولات الغواصين ، وما يقع لهم في ظلمات الليل ، وما يواجهونه في رحلاتهم عندما يضطرب الموج تحتهم . وفي ذلك تتجلى المغامرة والجسارة والمفاداة والثبات والقدرة على المواجهة ووقوع المآسي ؛ فكأن البحارة ينطلقون لا من موقف يواجهون فيه مصائرهم فحسب ؛ بل إن حياتهم أشبه ما تكون بخيال قصص (السندباد) أو تجاوزها ؛ فثمة فرق بين خيال مجنون ، وخيال عملاق له عزيمة تجوب البحار على هواه ، وإرادة تطاول السحاب :

ماذا يكون السندباد ؟
شتان بين خيال مجنون ، وعملاق تراه
يطوي البحار على هواه
بإرادة فوق الغيوم

فالعنصر الفكري الذي جعل منها موضوعا محليا خاصا بتتابع وتآزر حلقاته

---

(١) آل مبارك الدكتور (عبد الله) المرجع السابق ٣٦ ، ٤٨ - ٤٩ .

معبرا عن واقع بعيد عن الأساطير والخرافات ، ووحدة المشاعر والانفعالات النفسية - يجعل منها شبه ملحمة ؛ فحياة الحزن المتوالية للغواص منذ عهد الصبا والكتاب وخوف المجهول والسفر والبحر ؛ حتى الحزن في لحظات الفرح عندما تحكي الجدة حواديت (السندباد) ، وعودة الأجداد من رحلات شرق أفريقيا وزنجبار ، وحتى ذكريات الزفاف ، وترك الزوجة وغياب الأب وخوف المجهول ، وموت الحبيبة (طيبة) بالجدرى ، والصراع وسط الظلمة وحيوانات البحر . . الخ - جعلت كلها أحزانًا أثارت مشاعر الفايز فى سؤال يشف عن حزن عميق :

لم تنبت الأرض الزهور
وعظام موتانا بها ؟ أين الحبيبة ؟
ماتت من الجدري (طيبة)

والحزن في المذكرات حزن مباغتة القدر ومفاجآته ، حزن سوء الحظ ، وتعثر الخطى ؛ فهو حزن الألم والنكبة ثم الرضا لا حزن الرفض والحقد واليأس الدال على انهيار الإنسان .

والعنصر الخيالي بوصفه حاسة ذهنية رأى (الفايز) من خلالها موضوعات ما يلحظه من حياة الغوص شيئا أصيلا في شكله وهيأته فاقتضاه ذلك اختراع صور فنية مبتكرة بينها تناسق في المعطيات الحسية المتباعدة بإضفائه عليها ما يجلي قيمها الجمالية ، وجعلها صورة أدائية تتجاوز مجرد السرد القصصي والتقرير إلى بناء ذي مغزى تصويري ؛ صورة الشمس تحرقهم - الأرض مثل ثدي حليبه سم قاتل - والقمر يخنقه الجدار - وعروق اليد ترتجل النجوم . . الخ . والمذكرات بدلالتها خيال استرجاعي ، وخيال ابتكاري ؛ ففي تساؤله عن أفراح البحار إن كان ثمة له أفراح يشف الأداء عن جماليات الصورة المتوافقة مع حالته المستمدة من بيئته بكل عناصرها :

من يشتري أفراح بحار يعود مع المساء ؟
الشمس في عينيه ماتت مثلما مات البعير

والنور في بيت خلا لولا الحصير
وفتيل مسرجة كأهداب الضرير

إن موت الشمس رمز لضياع الحبيبة ومرضها ، وفتيل المسرجة كأهداب الضرير رمز لانطفاء شعلة في عودة الغواص للحبيبة طيبة :

من يشترى كل المحار ؟
بعيون (طيبة) يا نهار ؟

ومن الواضح أن الحبيبة (طيبة) هي جذوة الأمل التي انطفأت في صدره ، وهي النور الذي خبا في فؤاده ، والصور هنا تمثل البيئة ، وتستمد عناصرها من حياة البحر والغوص (عيناها فانوس يضوي من بعيد) ويشع من تحت الثرى ؛ ودخان المبخرة يغازله ، والمجاديف تعمل كرفسات عفريت متخبط في الظلام والضلوع ناتئة وسقراط الحزين يعيش تحت الماء .

والخطاب ثم موجه للحبيبة (طيبة) فلم تكن عيناها غابتى نخيل مثلما قال (السياب) ؛ وإنما عيناك غابتا نخيل ساعة السحر أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر – وإنما عيناها شيء آخر يلتمس صورته من حياة أهل الخليج .

عيناها مثل ضوء فانوس يشع من بعيد
عيناك تحت الأرض تبرق لي كفانوس بعيد
يومىء إلي . أكاد ألمس – من هوى – عرق الضفيرة
مذ كنت عند البئر تحت لظى الظهيرة

.....

يا طيب مبخرة يغازلنى الدخان . .

إن الصور تتتابع ممتدة وتتكاثف وتتنامى لتكون ظلالا قاتمة على أجواء الغوص ، وما فيها من حزن ، والم يدفع النهام العجوز ليسري بنشيده الحزين الرفقة البائسين :

ويظل ينهم ، ثم يبكى والمجاديف الطويلة
تحت الضلوع الناتئات
تحت البطون الخاويات
رفسات عفريت تخبط ، والبحار
فيها العجاذب ؛ مهد طفل من حجار
قبر بلا لحد . . عراة يغزلون
إكليل عرس . سندباد
تحت المياه يعيش كالأسماك . سقراط الحزين
والكأس والقمر الحزين

وهكذا تبدو الملامح القصصية في صياغة (المذكرات) وتشف عما بالنفوس ووجوه الأهل على الشاطىء سواد الزوجة المريضة بالجدري أم الأب العجوز الضرير ، أنها صور متعددة للبؤس الذى يسيطر على الجميع :

ويروح والدي الضرير
يبكى ويسعل . . والدخان
يندس في عينيه في البيت القديم
ونروح نسأله المزيد[١]

وتداخل المغامرات والأحداث خلا من الترتيب السببي والمنطقي ؛ فلم تحظ بالتنامي والترابط وتواصل المذكرات لتكمل موضوعا له بداية ووسط ونهاية ؛ ذلك أن « فكرة الترتيب والتكامل جاءت تابعة ، وليست البداية ؛ ولذا فقد تحقق التكامل أحيانا ، وظهر التخلخل في أحيان أخرى ، أو التداخل والتكرار »[٢] .

وتمثل (المذكرات) الاتجاه الواقعي لدى الشعراء المعاصرين بوضوح تام ؛

---

(١) عبد الله الدكتور (محمد حسن) الشعر والشعراء في الكويت ٢٨٧ - ٢٩٧ .
(٢) المرجع السابق نفسه ٢٩١ .

فليست مجرد حديث عن الغوص بوصفه موضوعا اجتماعيا لا يهدف لشيء ، كما أنها ليست تصويرًا لاتجاهات (الرومانسيين) وأحلامهم في عالم متخيل . لقد جاءت رصدا لعالم الغوص بكل ملابساته وظواهره الاجتماعية وأشخاصه في شتى أمورهم وعلاقاتهم الإنسانية وآلامهم وآمالهم ؛ حتى فيما تفرزه علاقاتهم من حب وكره ، وعدل وظلم وتعاون وتفرق . وتتجلى ملامح البيئة بالالتفات لدقائق الأشياء (السفن - البحر - المجاديف - الصواري - المحار - اللؤلؤ - الأسماك . . الخ . أما الطبيعة فكانت العقبة الحقيقية في صراع الغواصين ؛ فكانت جهودهم كلها موجهة للتغلب عليها . ويبرز في (المذكرات) استحضار الماضي واستلهام حقائق الحياة ، والتماس الصدق الواقعي في الدلالة على المحسوسات المشاهدة . وتلك قدرة (الفايز) في وصف بيئة الغوص المحيطة بالحدث وصفا موضوعيا معتمدا على الدقة ، وعلى الرؤية الخاصة للأشياء . وكما جاءت تعبيرًا عن (البعد الاجتماعي) لحياة الغواصين المرتبطين بصحبة السفينة في البحر وبعلاقات الأهل على الشاطيء ؛ فقد كانت - كذلك - مجالا متسعا لاستكشاف (البعد النفسي) وتعميق ما بالداخل واستبطان ما يدور فيه من صدق وأمانة وجلد وإيثار ، وتصوير قوة الروح وقدرة الجسد على تخطي العقبات ، واستجلاء الجوانب الإنسانية بما يجعل من فئة الغواصين مثالا حقيقيا للإنسان الكامل في كل بيئة ، وفي كل زمان ؛ فالواقعية ثم تعدت حديث الواقع لصورته المثلى التي يتغلب فيها جانب انتصار الحياة بالأحياء على جانب الفشل وضياع الأمل . والولوج لعالم البيئة المحلية في رصد واقعها الخاص . ورسم خطها التاريخي في فترة معينة لمهنة الغوص في المجتمع الخليجي - على الرغم من أنه يعد شهادة جزئية للغاية ، ورصدًا للبيئة المحلية - إلا أنها شهادة ذات قيمة عالمية لإنسان الغوص حيث يكون في أي بيئة وعصر ؛ فقد جاء استجلاؤه لمظاهر البيئة المحلية انطلاقا لتصوير النموذج الإنسانى الذي يتخطى حدود الضفاف والمحليات ، والتمييز بين حالتين لا بالتزييف ؛ بل بتصوير الواقع في روحه لا في صوره وأفكاره المجدية العاطلة المغزى ؛ فذاتية البيئة الخليجية شهادة عظيمة القيمة لها مغزى إنساني يمكن أن يكون مثالا لكل مجتمع .

- ٣ -

أحمد محمد الخليفة

التقت عوامل نفسية وظواهر اجتماعية وأحداث سياسية في حياة أحمد الخليفة[١] دفعته إلى استرجاع ذكريات الماضي ، واستدعاء أحداث الغوص ، واتخاذها محورا يدور حولها بعض نتاجه الشعري في محاولة لوصل الحياة الحاضرة بما كان سائدا في الماضي لمجتمع الغوص . وكانت حياة الطبقة العاملة بعد ظهور النفط تتشابه إلى حد كبير مع حياة الغوص بما شابها من قهر وطغيان وحرمان وكفاح ضد الاستعمار ، ومن أجل غد كريم .

وتتراءى هموم الجماعة بين الحين والآخر في ديوانيه (هجير وسراب) و(من أغاني البحرين) وهي هموم تربط بين مسار حياة الغوص ، وكفاح الإنسان الخليجي مع الطبيعة زمن الغوص ، وفى حاضر المناضلين ضد الظلم والاستبداد ؛ فهي حلقات متصلة الكفاح . وأحمد الخليفة لم يتخذ من حياة الغوص مثل هذا الموقف إلا عندما أدرك أن علاقته بهذه الحقبة مختلطة بها وممتزجة بأحداثها ، وأن عبقريته تستطيع أن تدرك الأبعاد النفسية لحياة الغواص . وقد يكون استرجاعه لحياة الغوص محاولة لتأكيد الذات وبداية لمن

---

(١) في البحرين عام ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م ومنآل خليفة ولد الشاعر ، ونشأ بها ، وتعلم فيها . وبين مشقفيها تشرب حياته العلمية ، وعلى شواطئها عرف الشعر فتعلق به ، وأُتيح له نشر قصائد متفرقة في بداية الخمسينات إلى أن أصدر له سنة ١٩٥٥ ديوان (من أغاني البحرين) متضمنا لبدايات نتاجه في التعبير عن الذات في الغزل والوصف والتأمل ، ثم صقلت تجاريه في ارتياد القضايا الوطنية والعربية التي تناولها من منظور خاص في إلماح جيد . ثم توالت إصداراته بديوان (هجير وسراب) سنة ١٩٦٢ و(بقايا الغدران) سنة ١٩٦٦ .

راجع : آل مبارك الدكتور (عبد الله) مرجع سابق ٣٤ ؛ الطائي (عبد الله محمود) مرجع سابق ٢٢٦ - ٢٢٩ .

يريد أن يبدأ ، فمن هنا ومن حياة الغواصين ومن مستنقع الآلام ومن خلال البحر بجبروته والأشرعة والصوارى بتمايلها واللآلىء ببريقها يمكن صقل العبقرية ، وإعادة تأكيد الذات الشاعرة بصدق وإحساس عميقين ، يدل على ذلك مثل قوله :

موطني الجمال ومهد الـ ـعبقريات من سحيق العهود
يذكر الموج والشواطيء تروي قصة المجد في الزمان العنيد
من هنا أقلع الشراع فرفت في أعالي البحار بيض البنود
من هنا راحت السفائن تلقي ضوءها للآلي بكل صعيد[1]

وتعد قصيدته (أنشودة الغواص) من ديوانه الأول (من أغاني البحرين) :

أنا الغواص في البحر حليف الجد والصبر[2]

انطلاقته الأولى مما يتصل بظاهرة الغوص ، ومما بقى صداه يردده الصغار والكبار لخفة نغمتها وسلاسة تعبيراتها ، وسهولة ألفاظها ، والتصاقها بوجدان الإنسان الخليجي منذ كان الغوص . وسماها (أنشودة الغواص)[3] مثلما اختار (السياب) لقصيدته (أنشودة المطر) ، وكما فعل - فيما بعد - مبارك بن سيف بقصيدته (أنشودة الخليج) .

و(أنشودة الغواص) تعرض لحياة الغواص ، وما يفاجئه من مواقف ، وتمزج بين مشاعر متباينة من فرح وحزن ومن أمل وألم ، ومن أمن وخوف ؛ فمع خفقات القلب بالآمال ، وأهازيج الفرح تجدد رنات الحزن الدفين آلاما طوتها

---

(١) الخليفة (أحمد محمد) أغاني البحرين ص ٤٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٥٠ . وسبقت القصيدة في ص من البحث ، وجاءت على تفاعيل (البحر الهزَج) : مفاعيلن مفاعيلن في كل شطرة ، وهو بحر غنائي بطبيعته ؛ فتفاعيله سهلة خفيفة ثنائي التفاعيل .

(٣) الأنشودة وجمعها أناشيد : رفع الصوت بالترنيم والشدو من أنشد الشعر قرأه بترنيم الصوت وترقيقه فى شجْو . والأناشيد غالبا ما تعبر عن وجدان الجماعة لموقف قومي أو وطني أو اجتماعي تتناول مظهرًا من مظاهر الحياة العامة ؛ فتحكي ما كان ، وتسجل موقفا جمْعِيًا .

الجوانح على الأهل ؛ حيث هم على سيف الخليج ؛ بينما الغواص يأخذه الموج لعالم بعيد لا يعرف عنه إلا القسوة وغموض المستقبل وخوف الضياع . ومن ثم فالقصيدة تلقي بظلالها الحزينة على تلك المواقف ، وتستجلى جوهر حياة الغواصين ، وتعكس ما بالنفس من مشاعر متباينة ، وخواطر مستبطنة ، بما يجعل من (أحمد الخليفة) رائدًا من رواد هذا الاتجاه ؛ فقد أدرك جانبا من معاناة حياة الغوص فإذا هو شاعر مخضرم لزمن الغوص ولزمن (النفط) معا .

ويضيف ديوانه (بقايا الغدران) لوحات أخرى عن حياة الغواصين ، ومشاهد حية أطال الوقوف أمامها متأنيا ؛ فلم يدع شيئا يتصل بالمهنة إلا ورصده . وموضوع الغوص في ديوانه يستجلي الرؤى الخاصة في أن الغوص لم يكن مجرد عمل للارترزاق حسب ؛ بل إن ما يصادفه الغواصون ، وما يرهقهم من مشاعر متباينة من حزن وفرح هي جزء من حياتهم . ولعل (رائية) (الشراع المتمرد) في (بقايا الغدران) تعد دليلا لتصوير قسمات الوجوه ، ونبضات القلوب في الخليج ترفعها موجة وتحطها أخرى ، وعلى الشاطيء يدفعها أمل اللقاء :

يهزهم الفراق بكل يوم ... إذا طال البعاد عن الديار
فكم (غيص) تنهد من فؤاد ... يهيم يحب أطفال صغار
وكم (سيب) بكى من فرط حب ... براه إلى حبيب بالديار
و(تباب) يحوم له فؤاد ... إذا ما الحر زاد على (عذاري)[1]

وتمثل (الرائية) للنزعات النفسية عند الغواصين والمقيمين (يوم الدشة) وفى عرض الخليج و(يوم القفال) ينبيء عن إدراك الشاعر لموضوع الغوص إدراكا تاما ؛ فقد عاصر في الزمان والمكان ، وخالط فئة الغواصين . و(الشراع المتمرد) هو (شراع هام في عرض البحار كما طيف يهيم بلا قرار) . أما وصفه ليوم

---

(١) العذاري : عين ماء بالبحرين ، والقصيدة على البحر الوافر مفاعلتن مفاعلتن فعولن مرتين .

(القفال) فجاء تعبيرا عن مدى فرحة الأهل بالعائدين من رحلة الغوص كما أكد ذلك في القصيدة .

وعلى هذا النحو مضى (أحمد محمد الخليفة) يصور انفعالاته بحياة الغوص في (واقعها) محاولا ربطها بشعره الآخر في استنهاض (الشرق) وفى إثارة الحمية الوطنية وبث روح التحرر والالتفات لقضية فلسطين يمثله قوله :

يا شرق . . لا زلت تحيي الحق من
قـــــــــــــــــــــدم وتنبث الصيد أبطالا وقـوادا
إذا مضى زمن للنور وانفرطت رؤاه عدت له في الأرض ميلادا
فاصعد بأمتك الشماء مفتخـرا واضرب لأبطالها للفتح معيـارا[1]

★ ★ ★

---

(١) أحمد محمد الخليفة : هجير وسراب : ١٩ . والقصيدة على البحر البسيط مستفعلن فاعلن أربع مرات .

- ٤ -

علي عبد الله خليفة

في ديوانه (أنين الصواري) ينطلق صوت (على عبد الله خليفة)[١] يتجاوب صداه في نغمة بكائية حزينة يستنهض فيها جماعته ، ويستثير همم الرجال . وقصيدته (بذر الأراضي الواهية) إحدى الدلائل على حياة الغواص في البحار بإيحاءات تعد نوعًا من (الإسقاطات) على حياة المطحونين تحت لهيب الشمس في الصحراء ومع الآلات في المصانع بما يجعلها استرجاعًا لحياة الغوص ؛ إلا أنه يتخذ من معاناة لقمة العيش في الماضي ، وامتهان الإنسان في الحاضر أملًا يتجدد في المستقبل ، وينفتح على غد مشرق بالخير والكرامة .

وتعد القصيدة بمثابة ستار تاريخى ، أو قناع يشف عن غاية تتكشف فيها مساويء الحاضر ؛ فالمشاق هي المشاق ، والظلم هو الظلم ؛ ظلم الطبيعة للإنسان ، وقسوتها عليه ، أو ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ؛ بل إن ظلم ذوي القربي أشد مرارة . وبقصيدته الثانية (على أبواب الرحلة الأولى) ينساب نغم حزين فيه انفعالات مؤلمة بالموقف ؛ فيتناول - في صدق - ما يحوط حياة الغواص الذي لم يقدر على الاستمرار في المواجهة ، فيصور أحواله في سرد واقعي يفي - إلى حد كبير - بما في وجدانه ، وهي إذ تعبر عن أحوال بحار

---

(١) شاعر معاصر وُلِد في البحرين ونشأ فيها ، وفي مدارسها بدأت حياته العلمية ، وقد أكمل الثانوية في القسم العلمي ؛ إلا أنه كثر تذوقه للأدب ، وقراءاته الشعرية تحولت بطاقته الفنية لمجال الشعر ؛ فاقتدر على القصيدة المحدثة ، ومن بواكير شعره ديوان (أنين الصواري) صدر سنة ١٩٦٦ تتجلى فيه النزعة التجديدية ، ويركز فيه على الجوانب الواقعية في إلماح باستعراض تاريخ الغوص . ورنَّة الحزن والأسى تسيطر على جو القصائد .

انظر الطائى (عبد الله بن محمد) مرجع سابق ص ٢٣٨ - ٢٤٤ .

إلى ابن صديق له طوته الأمواج يأتي الصوت منبثقا بتلك النبرات .

فلئن خانت بحار الصمت بحارًا جسورا
ارتمى منه الشراع
مزقا فوق الاحاج
وتهاوى قائم الأشياء ، وانفكت حبال

وهنا تتداخل الأصوات في القصيدة ، ويأتي الصوت الثاني عبر انفعالات ليكمل ما وصلت إليه حال الغواص :

فاحتواه الموج في حق مشاع
بعد أن خارت قواه

ثم يتردد صوت آخر يرد على سؤال يثار ولم ذلك ؟ فيجيء الجواب :

هذه أحوال دنيانا ، وحال البحر
من بدء الدهور
جل ما يصفى لنا الدين ، والباقي زهيد
لا يفي قوت العيال
يا له ذياننا الفظ الصفيق
كجموع الدود في أعماق غواص صغير
والذي باق من الدين كبير[1]

والوحدة التي تجمع هذه القصائد وحدة مشاعر نفسية يتوحد فيها الشاعر مع الموقف في عرض سريع بعيد عن التفصيل والتحليل والتدقيق طولًا وعرضًا وعمقًا مثل القصص القصير ؛ لأن القصيدة هنا تعرض عرضا مؤثرًا فيه إجمال ، وهي أقرب ما تكون إلى القصائد المحدثة التي تنطوي على فكرة عامة لموضوع كلي .

---

(١) خليفة (علي عبد الله) أنين الصواري ٣٤ والقصيدة على تفعيلة الرمل : فاعلاتن موزعة على أسطر شعرية .

ومع شدة ما يقع للبحارة من مآس لا يسلم منها الأهل يتجلى الإصرار على خوض التجربة للنهاية . وفي قصيدته (من أوال الشط أحكي) مشاهد مؤثرة لابن الغواص لا في شكله وهندامه ، وما وصلت إليه حاله ؛ بل في مدى إصرار الصغير على معايشة أبيه تجربة البحر ومشاركته له في المعاناة ، وقد جاءت في صورة حكاية سردية بسيطة :

جاءني ابني الصغير
ناحل الجسم هزيل

ويتداخل الصوت الثاني مصورًا حالة الطفل :

.....
فاعترت وجه الطفولة
قسوة العيش وآثار الظلام
فعلى الجفن اليسار
أثر باق لجرح لا يطيب
وعلى الصدر تدلت في انكسار
خرزات وتمائم
لاتقاء العين دفعًا للسقام[1]

ويستعطف الصغير اباه أن يأخذه معه فهو على قدر من التحمل والمسؤولية . وهنا تتداخل الأصوات : فيأتى الصوت الثاني معبرا عن أحاسيس الطفل :

أفلا تأخذني للغوص مرة ؟
أتصبر

ويجيء الصوت المكمل للحكاية :

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ٨٠ . والقصيدة على تفعيلة البحر الرمل فاعلاتن موزعة على أسطر شعرية .

كل ما يطلب مني سوف آتيه وأكثر
قد حفظت اليوم سورة
إنني آكل ملحًا كل صبح وأسمي
فلذا أحفظ سورة

ويعلن عن قدرته وقوة تحمله فيقول :
ستراني أشرب البحر إذا شئت فخذني
دون أن تخبر أمي[١]

على أن حياة البحر في قصائد (علي عبد الله خليفة) كما عند (أحمد الخليفة) و(الفايز) و(مبارك بن سيف) تمثل بعدًا نفسيًا مفعما بالأمل والآلم في كفاح الخليجين من غربة وخوف وشوق وحنين . وفي (أنين الصواري) نغم حزين حتى في اسم الديوان يتضح في ذلك الترابط بين حياة البر والشاطيء والنخيل ، وحياة البحر والموج والمحار ؛ فالشاطيء يمثل الاستقرار والوطن ، والبحر والموج يمثل الغربة والرحيل والضياع والفناء ؛ ولذا يقول (علي عبد الله خليفة) :

(كل آبائك) عاشوا للنخيل
للحبال)[٢]
(لعذوق البسر . . للأرض وللبحر العنيد)[٣]

وهذا ما يلمح في الديوان من تناقضات الحياة والموت والبقاء والفناء والاستقرار والارتحال ، ومن التواري خلف الوقائع التاريخية واتخاذها قناعا ليشف عما وراءه من حديث عن الحاضر في مرارته وقسوته .

ويأتي ديوان (إضاءة لذاكرة الوطن) مازجًا بين حياتين للغواص :

---

(١) المصدر السابق نفسه ٨٤ .
(٢) المصدر السابق نفسه ٦٥ .
(٣) المصدر السابق نفسه ٦١ .

فالأرض تنبت الرجال ، والخليج يشرب
الماء والدموع . . يقدح الشرر
الأرض لا تموت
والبحر لا يموت[١]

لكنه لا يتخذ التاريخ قناعًا وتعمية مثل (أنين الصواري) وإنما يعمد للقضية الوطنية المعاصرة دون الحدث التاريخي فيأتي الديوان فعلا إضاءة لذكراة الوطن ، وتنويرًا للمواطن وتبصيرًا للإنسان بيومه وغده .

* * *

(١) علي عبد الله خليفة إضاءة لذاكرة الوطن : ٤٩ .

— ٥ —

مبارك بن سيف آل ثاني

يجيء حديث الشاعر في هذا الموضوع حديث ذكريات عبرت ، ومشاهد مرّت ؛ فما تبقّى من آثار الغواصين في قصيدته (بقايا سفينة غوص) يعبر بها عن فكرة معتمدًا على التركيز في استعادة الزمن الفائت بعد أن غدت عملية الغوص مجرد حكايات وقصص . وهو يُمني النفس مرة ، ويسلبها أخرى بعد أن أصبحت سفينة الغوص تركة مثقلة بالهموم والأحزان والذكريات للأجيال المتعاقبة فهي رمز للزمن الماضي .

ويستعيد ما يتصل بحياة الغواص من نشيج النهّام ومعاناة الغواصين ، وحركة الأشرعة والحبال ، وقد انبسطت كجناح (النوّرس) الناصع البياض ، واضطراب الماء الأجاج وقسوته على الجروح ، والوجُوه الشاحبة في أشعة الشمس القاسية .

إنما أنت بقية
قد رماها الزمن الطاحن
للأرض وصية
للصغار القادمين[1]

ويمضي في تذكر المآسي لينتهي إلى أمل في غد مشرق يلوح فيه فجر الضياء يوم (القُفال) بعد ما طال ليل البحر وطال ، ويختتم قصيدة الذكريات بخطاب لبقايا السفينة : —

---

(١) الشيخ مبارك بن سيف : الليل والضفاف ص ٧ .

إن تذكرتِ فهل تنسين
أيام القفال
بعد ليل طال في البحر وطال ؟ !

.....

وَآذكري الشط إذا ما الشط قد مَدْ ذراعه
اذكري الأمس وقولي
إنها شَرْع الحياةِ
هكذا تمضي الحياة[١]

والقصيدة خروج على المضمون التقليدي ، وعلى الشكل العمودي ؛ فقد جمعت بين التام والمجزوء والمشطور من (البحر الرمل) .

وقصيدة (عشاق الشمس) تعد امتدادا للحديث عن الرجال الذين عافهم البحر ليعيشوا حياة جديدة وسط حقول النفط في موازنة بين حياتين في كل منهما مرارة ولوعة .

إنهم تلك الرجال
عافهم بحر الطغاه
ليتيهوا في حقول النفط
يَفْلِقُون الأرض صبرا
يحلُبُون الصخر درا
إن دُرّ اليوم نفط
وَغَدَا الغواص يَسعى
في حقول النفط يجتر المآسي[٢]

---

(١) المصدر السابق نفسه ١١ .
(٢) المصدر السابق نفسه ١٥ - ١٨ .

وتزاوج القصيدة بين حياة الجذب ، ثم ما أعقبها من حياة الخصب والنماء .

والملامح (الرومانسية) في القصيدة الأم (الليل والضفاف) تشكل حديث الشكوى والآلام والهموم وتطغى فيها نبرة الحنين والحرمان والعذاب والجراح .

يا هجيرًا كنتُ أشكو لفحه
أين مِني حُلُو ذَيّالك النسيم ؟
يا نجيمات الدجى رُدي الجوابا
لي فؤاد كلما طافت به الذكرى أثابا
يستلذ البعد والحرمان فيه والعذابا[1]

وهو هنا متأثر بالمنزع الرومانسي عند (ناجي) في قصيدته الأطلال .

وتسترجع (سُفُن الغواص البائسة) حديث الأمس البعيد ، وتجتر الذكريات عن حياة الألم ، والشاعر يخاطب الخليج .

إيهِ يا ماء الخليج
كم شربنا ماءك المالح
وسمعنا آهة النهام أعيتها
جبال من هموم

وتبلغ مرارة اجترار الذكريات غايتها في مخاطبة الخليج .

إيه يا ماء الخليج
كم مكثنا فوق جنح الماء ما بين رجاء ورجاء
وظلام دامسِ الأرجاء يغتالُ الضياء

ويعود به الأمل مرة أخرى في سؤال الشمس عمن غاب عنهم ؛ بينما تمضغ النساء الصبر بآهات مريرة ، ويصور طير (النورس) ذا الجمال والبياض رمزًا

---

(١) المصدر السابق نفسه ٢٧ - ٣٨ .

للأمل وللحياة من جديد :

إيه يا ماء الخليج
قل لطير النَّورس البادي الجمال
طِرْ ورَفْرِف فوق أطفالي الصغار
واحمل القُبلات مني
قل لهم : إنى مع الأمواج آت
إنني آت إليهم
مثلما يأتي مع الفجر النهار[١]

والقصيدة تعتمد تفعيلة (البحر الرمل) وتتكرر فيها كلمات تعد مفاتيح مثل (إيهِ) ٨ مرات لتحمل معاني الأمل وعودة الحياة وحب الأرض والخليج . والقطع الحوارية أو ما يطلق عليه (المنولوج) الحوار الخارجي ، أو (الديالوج) الحوار الداخلي يتحول إلى سرد . وكما كانت قصيدة (أنين الصواري) هي القصيدة الرئيسة عند (علي عبد الله خليفة) في ديوانه (أنين الصواري) فكذلك جاءت قصيدة (أنشودة الخليج) متكاملة وتحمل اسم الديوان كله .

وبناء القصيدة عنده يعتمد على توارد الخواطر وفقا لسياق الموضوع المأثور ؛ حيث تتوازى فيه المعاني وتتلاقى . والشاعر يطرح قضية الغوص في فكرتها وغايتها ومضمونها ، وفي صورها الفنية مثلما هو في (سفن الغوص البائسة) يتناولها في منحاها الواقعي ، وتأثيرها الشعوري والفنى بهذه الصياغة . واسترجَاع الظاهرة كجزء من المضمون الاجتماعي الإنسانى العام يهدف إلى معناها الإنساني وشمولها وبقائها[٢] .

---

(١) المصدر السابق ٤٣ - ٤٤ . وإيه : اسم فعل للاستزادة من حديث أو عمل معهود وهو اسم فعل أمر بمعنى : زد فإذا نونت إيه فهي للاستزادة من حديث أو عمل ما وتكون للإسكات والكف بمعنى حسبك ، وتنون منصوبة فنقول : إيهًا : لا تحدّث .

(٢) وثمة شعراء آخرون تناولوا القضية مثل عبد الرحمن رفيع وعلوي الهاشمي وقاسم حداد وعلي السبتي وغازي القصيبي في إجمال .

القيمة الموضوعية والأثر الجمالي :

ترجع قيمة أدب الغوص إلى أن الجوانب الإنسانية ، والخطرات النفسية فيه لم تجيء تعبيرا مباشرا قريبا من الاستجابات الحسية في هيئة تقريرية ، أو في نبرة خطابية ؛ بل جاءت صورة غير مباشرة ، توحي بما وارءها للدَّلالة على هذا الإنسان الغريب ؛ ولذا فالمعاني تتوارى ، والأفكار تتداخل لتفسح المجال للصورة الإنسانية العامة ، وللخلجات النفسية ؛ صورة الغواص الغريب ، تقربه الغُربة من كل كائن ، حتى حيوانات البحر ، ويؤلم نفسه البعدُ عن كل إنسان وكل صديق ؛ وإنه ليتمنى لقاء الحبيبة (طيبة) ، وفي حاجة للأنس بأي مخلوق ، والتودد إليه تودد الحبيب إلى الحبيب . من ثم يثير أدب الغوص في النفس إحساسا مُفعَما بكل معاني الحب ، وفضائل الشجاعة ، ويزوّد الخيال بعناصر جديدة من أسرار البحر وعالمه ، مما نَدُر أن يوجد فيما سواه . كما أنه يحمل من المعاني ومن العواطف الشفيفة ما يأخذ في كل اتجاه ومقصد ؛ حتى ينتهي للصورة الإنسانية العامة .

وفي شعر الغوص تتكشف (الصور) الفطرية التلقائية البعيدة عن كل التهيؤات المؤدية للتفكير السلبي ؛ من وهْم وخبل وتهويل مذهل وشطحات غامضة . وقد تسامى الشعراء عن الغرام بجمع صور بلاغية تتسم بالغلو والإغراق[1] ، وإقحام (مجازات) لا علاقة لها بالفكرة . فلم يكن الهدف البراعة اللفظية ، واستخدام مالا ينبيء عن مغزى حقيقي ، ومضمون له قيمة فنية وموضوعية .

إن في شعر الغوص لأحاسيس إنسانية عميقة وخالدة تتكشف بالقراءة المتأنية ، وهو أدب يثير في كل إنسان ما عاناه الغواصون ، وما يمكن أن يحدث لأي إنسان يواجه الأخطار فيحاول الانتصار عليها ، ويتغلب على عذابات الحياة ، يدرك

---

(١) الغلو : أن يدعى في وصف شيء بلوغه في الشدة أو الضعف حدًّا مستحيلا ، أو مستبعدا ؛ إلا ما كان ممكنا فيه عقلا وعادة فهو المبالغة ، أو التبليغ ، وما كان ممكنا عقلا فقط فهو الإغراق وهما مقبولان ؛ أما الممتنع عقلا وعادة فغُلوّ .

حلاوة التشهي وزهاوة المشتهي وقناعته ورضاه بعد حين واضطراب بين (واقع) الحياة الشاق والصعب ، ورغائب (النفس) المتمنية الراضية المتحولة والمستندة للشوق إلى المجهول الذي يمنعه الواقع المحتوم .

ليست الأفكار ثَم هي الأمر الضروري والحتمي في شعر الغوص ؛ فالأمر الجدير بالتوجه إليه هو ذات الغواص وأهله . وإن الجانب الإنساني الذي تدرك انفعالاته ، ونبض وجِدانه هو المقصد والغاية المثلى .

والتصوير الفني الذي جاء في شعر الغواص – وإن لم يَخْلُ من قيمة (جمالية) لها قيمة (موضوعية) مرتبطة بالصورة الإنسانية العامة المترامية بين ظلال الصور (التعبيرية) ، والتي يشف عنها (الخيال) – هي – في واقع الأمر – المغزى الإنساني والنفسي .

وإذا كان الأدب لا يقاس بقيمته الموضوعية بقدر ما يحدده التصوير الفني ؛ فإن الصياغة لم تجيء غاية في ذاتها عند شعراء الغوص ؛ ولكنها فيض تلقائي له قيمته وجلاله ، يلتقي بومضات الذهن ، ولفتات الفكر إلى منابع النفس الصافية المطمئنة ، وإلى روافد هذه المنابع .

والأمر المضني في تتبع الخطرات النفسية لإنسان الغوص لا ينتهي عند حد ؛ فثمة إيحاءات نفسية من الخطرات والانفعالات تتماوج وتضطرب حينا ، وتستقر حينا آخر ، وتختلج وتبدي حركة الحياة وظلالها في الغواص الذي يسطل بجزء من نفسه على جزئه الآخر ، وينظر بعين من يصارع الأهوال في أهله وخلانه .

ولقد حرَص الشعراء المعاصرون على إعادة الحديث عن موضوع الغوص بعد انتهاء مراحله[1] ، وظهور اللؤلؤ الصناعي ، وبداية استغلال النفط على أساس أن

---

(١) توقفت حركة الغوص بعد سنة ١٩٣٢ ، عندما بدأت الشركات تنقب عن البترول . وظهرت أعمال (جاسم القطامي) سنة ١٩٤٨ .

أمين الريحاني : ملوك العرب ٢٢٨ د . محمد الرميحي : التغير الاجتماعي ٣٧ ؛ د . علوي الهاشمي : الأدب المعاصر في البحرين ٢١ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٣٠ .

الأدب انفعال بمظاهر الحياة ، وحقائق الوجود الإنساني ، واستجلاء لأبعادها . وحياة البحر لم تكن مجرد ظاهرة اجتماعية يخوض فيها الأدباء ؛ وإنما حياة البحر بما تمثله من معان إنسانية وصهر للنفوس - صارت من أجلي جوانب الحياة ارتباطا بقضايا الأدب في الخليج في دلالتها على رسم صورة لإنسان الغوص ، وملامح نفسه الشفافة .

وأدب الغوص هو الظاهرة الأدبية ذات المستويات المتعددة ؛ مستوى الرمز الأسطوري ومغزاه ، ومستوى التداعيات التي أوجدها ، ومستوى الإيحاء والإسقاط ، ومستوى الكشف عن الهموم الذاتية والجماعية . كما أن ظهوره في الأدب المعاصر يعد مفاجأة غير متوقعة فيما يدور حوله من قضايا . وإن غياب هذه المعاني عن السابقين في طرح قضية الغوص لهو دليل قاطع على غياب الربط الواضح بين علاقة الأدب بالحياة ، وتبنيه للمضمون الاجتماعي .

والسابقون لم يستوعبوا مضامينه ، ولم يكن ثمة تبادل للتأثير والتأثر والانفعال بأحداث الحياة ؛ فالأديب يتأثر بمجتمعه ويؤثر فيه ؛ ولكنه لا ينتج أدبا جادًا إلا عندما تستقل ذاته عن المجتمع متخذا موقفا فكريا خاصًا به . والموقف الذي ينبغي أن يقفه الأديب ليس بالشيء المستحيل أو الميئوس منه ، أو الموغل في الوهم والعجز ؛ فينتزع الأديب من واقعه ، ولا هو بالشيء الذي يهبط به للسلبية فيعجز عن تصويره .

وحياة الغوص على اللؤلؤ مع أنها سعي للارتزاق ، لكن حياة العمل ليست إلا مجرد تحوّل من الروح (الفردية) للروح (الجماعية) . وإن الأدباء لم ينفعلوا بمهنة الغوص إلا تحولًا بالأدب من الانكفاء على (الذات) إلى الانفتاح على (الجماعة) .

إن المضمون الاجتماعي أعم من أن يدل عليه حديث عن الناقة والنخلة ، أو حديث عن السفينة واللؤلؤ ؛ لأن (الواقعية) تحوّل للجماعة ومعايشة لأحداثها ،

وتخطي ذات الشاعر وذات الممدوح ؛ من ثم يكون الحديث عن النخلة والناقة والسفينة والمحار حديثا عن الجانب الإنساني لابن الخليج . والنزوع الإنساني في قوة العزيمة والتحمل والمواجهة - إثبات للذات ، وانتصار على هزيمة النفس وعلى الضياع ، وحديث عن البطولات المسافرة عن دروب الحياة بحثا عن النصر ؛ فالغواص لا يجوب (عالم البحار) حسْب ؛ وإنما يجوب (عالم النفس) و(الذات) . إنه يبحث عن المحار ، ويبحث عن صورة البطل في داخله ، إنه المولود الجديد الذي ينتصر على جوانب الضعف والهزيمة النفسية ، إنه يبحث عن (جوهر الإنسان) ؛ فتجاوز آفاق الخليج وضفافه إلى واقعية بلا ضفاف .

والحديث عن الغوص لا يخلو من مغزى ، وهو يعد نوعا من (الإسقاط) على الحياة الحاضرة واستبطان الأمور[1] ؛ فبكاء (النهام) الضرير وصراخه في الزمن سارق قوت الجموع هو رمز لتداعيات الحاضر ، ومعاناة الإنسان : -

وسمعت (نهامـــا) ضريـــرا يبكـــي يَـــذُر على الجروح
ملحـــا ، ويصرُخ في السمـــاء صوتـــا تَصِرُّ لـــه الضلـــوع
يـــا أيها الدهـــر الخؤون يـــا سارقًـــا قُـــوتَ الجمـــوع[2]

وهذا ما يضيف بعُدًا جديدا ، ومستوى فنيا ونفسيا ، وإثارة المشاعر لقضية جماعية ، تضمنتها حقيقة واحدة هي : أن الألم الإنساني واحد والجرح ينتظم الجميع تحت وهج الشمس وفي ظلمة البحر ، وأن إشراقة الفجر مقبلة .

القاتلون سيُقتلون
وفي السما رب سيثأر للضعيف إذا ازدراه الأقوياء

---

(١) استبطن الوادي : دخله ، واستبطن أمره ، عرف باطنه وجوانبه واستبطن الأمر : أخفاه ، وستره في داخله والاستبطانintrosection : طريقة في ملاحظة الحالات الوجدانية ، يقوم بها الإنسان لذاته ولنفسه . والتعبير عن هذه الحالة بالنص الشعري . وتتمتع لغة الشعر بوسائل متعددة للنقل والتفاهم تتيح استكشاف الباطن النفسي . والاستبطان الذاتي وجد مع الرومانسية وهو تعبير الشاعر عما يعتمل في وجدانه وذاته حقيقة .

(٢) الفايز المذكرة الثانية عشرة ص ٣٨ ؛ آل مبارك الدكتور (عبد الله) : الأدب العربي المعاصر في الجزيرة ص ٤٩ .

ويمثله قول (علي عبد الله خليفة) من قصيدته (الجرح الكبير) بمنزعها الإنساني ؛ حيث يخاطب أمه : -

أنا في دمعة المحزون . . . يا أمي
أموت ، أعيش في إرهاق مكدود
وفي رعشات مسكين
أنا في كدح عائلة
تعاني الضيق والتجريح في كلل
أنا في سخط ثاكلة
تعد جنازة الأحزان في أمل[1]

وتضيف قصائد الغوص (مواقف) ورؤي قومية منفعلة بالعصر وأحداثه فإنسان الغوص يطفو من جديد ويظهر في (فلسطين) : -

أنا يا (دانة) الخلجان يا أمي
أخيط الجرح في (بيسان) بالإيمان والقوة
أرى الإنسان في (الأغوار) لا يرجو
عطاء العرف والقانون والنخوة
فيلقى الموت مختارًا
أما الشمس بين الأرض والموت
وأختي لم تعد تبكي
على أبوابها (يافاها)
.....
أنا الإنسان يا أمي
أنا الإنسان في شتى بقاع الأرض

---

(١) أنين الصواري ٨٨ - ٨٩ ؛ الطائي (عبد الله محمد) الأدب المعاصر في الخليج ٢٣٨ - ٢٣٩ . والقصيدة على تفعيلة الوافر مفاعلتن موزعة على أسطر شعرية .

في الإصرار في الزحف
أنا في اليتم في التشريد في التنكيل والعسف
أنا جمع من الفقراء والبؤساء والمرضى
وتاريخ من التشتيت والكبت[١]

أما الأمل بظهور الفجر فيمثله نهاية القصيدة :

يا أيها البؤس الذي
عاشت به الأيام قهرا في البيوت
لا . لن نموت
فالشمس تشرق من جديد
رغم الظلام
والفجر آت
الفجر آت[٢]

وهنا إيحاءات وتلميحات لرفض الواقع في فكرة غير مباشرة ؛ فالحديث عن مهنة الغوص يشف عما يرومونه ؛ لإبراز خصائص فنية معتمدة على نبرة الانفعال الصادرة عن (وعي) حينا وعن (لا وعي) حينا آخر . والتوازن بين مدى الانفعال بالفكرة والتعبير عنها . والاهتداء بالحاسة اللغوية في اصطفاء الصور التعبيرية جعل النفوس تمتلىء بالأفكار وتنفعل بالمعاني مما استحدث علاقة بين (ثنائية) الفكرة وشكلها .

وقد استُخلِصت الصور الأدبية من واقع حياة الغواصين فجاء الخيال مبتكرا ، والصور بريئة من كل فضول ؛ فكانت قريبة من الحياة لأن مادة الشعر أصيلة في ذاتها . وإن أدبا يبسط صفحته في غايتى المتعة والمنفعة لجدير بأن يطلق عليه

---

(١) المصدر السابق نفسه ٨٩ .
(٢) المصدر السابق نفسه ٩٠ - ٩١ . والقصيدة على تفعيلة البحر الكامل متفاعلن موزعة على أسطر شعرية .

أدب الأصالة والمتعة والجمال .

والبساطة المثيرة في الصور مستمدة من واقع الحياة وهي صور ليست وسائل تقوية الصفة ؛ بل هي وسائل تمنح التعبير كله معنى الحركة والامتداد اللذين تشعر بها النفوس .

وتعتمد خصائص شعر الغوص على صدق المشاعر ، وعمق الرؤية الفنية ، وسهولة التناول ؛ كما تجيء معتمدة على توظيف الأسطورة ، والمعاني التراثية ، والاقتراب من العنصر القصصي ، والامتزاج بالطبيعة ، والتآلف مع الأحداث .

الخصائص الفنية لشعر الغوصَ :

جاءت المعاناة في شعر الغوص أصدق لهجة ، وأكثر عمقا وألصق بالألم في الحديث عن الغربة والأسى . وتجارب شعر الغوص تعتمد عنصر التأمل والانفعال الهاديء الحزين أسلوبًا ومنهاجًا ، وهو انفعال يَهِب التجربة الصدق والتعقل والتعمق ، وفهم واقع الحياة والنفوس والحرية والعبودية والفقر والغربة والجوع والحنين للأهل والسلامة والفرحة بأرزاق الحياة .

والتجربة المنفعلة بالحياة هي التي تسمو بالفن حينما يبتعد عن الوصف المباشر والتقرير إلى الوجدان الذي يتعمق معاناة العالم الداخلي ليبرزه للخارج . والانفعال المتأني المهتدي بالعقل هو الانفعال الحقيقي ، وهو الذاتية المرتبطة بالموضوعية .

والخيال المبدع ليس مجرد قدرة على التصوير واستحضار المشاهد الحسية ، واختراع صور ؛ وإنما هو قضية نفسية ؛ فقيمته تتجلى في استبطان الأشياء للوصول إلى الأحوال النفسية الغامضة . والخيال يستجلى عالم الروح والنفس ، ويكتشفهما فتتجسد المعاناة . ولا قيمة له إن جاء خيالًا حسيًّا يُعيد تجميع العناصر ، وتوليد الجديد ؛ ولكن قيمته تبدو في التعمق النفسي والتأمل ، وتجاوز المظاهر لما وارءها .

وشعر الغوص على هذا النحو يعد أعمق اتصالا بالحقائق العملية في الوجود ،

وأقرب إلى استبطان جوهر الأشياء والعوالم وأسرار النفس وخفاياها . والعوالم التي تناولها شعراء الغوص (البحر والقاع والبر) وكذا عالم النفس – تناولها بعد ما شفت ورقت وعظمت حتى صارت هناك ألفةٌ بين الشعراء وهذه العوالم فامتزج العالمان ؛ عالم المحسوس وعالم الروح ؛ فكانت الرؤيا العميقة للفن ولطبيعته الصافية قد اخترقت ما حجبها من عالم الألوان والأشكال .

أما الجانب الأسطوري : فإن الشعراء قد تلمسوه واستخدموا رموزه لتعبر عن الزمان والمكان اللانهائي . وامتزاج الفكر بالأسطورة جعل الشعر يتوهج ، ويتأرجح بين يأس وأمل وحياة وفناء وسعادة وشقاء .

وقد استمد شعر الغوص من الجانب الأسطوري ما يفي بالغرض ، ويتوافق ومنطق الأشياء ، وكانوا يسجلون مواقف فيها حقائق وأحلام استمدوها من التاريخ ، وهي مواقف بين اليأس والأمل والحق والباطل . وطبيعة الصراع قائمة بين الحق والباطل والخير والشر والغنى والفقر والخصب والجدب والحياة والموت ؛ ولذا جاء شعر الغوص يمثل انتصار الحياة بكل ما فيها من معاني الخير على الفناء والشر ، وإن نزعة البقاء والخلود والحياة والسعادة لهي أقوى من نزعة الفناء والموت والهوان .

الشكل الفني :

وفي محاولة التحرر من أسر التقليد ، والخروج عن التصوير المألوف إلى استحداث جديد معتمد على أصول من العلاقات في خصائص اللغة ، وطاقتها الإبداعية – اعتمد شعر الغوص على اختراع صور مستحدثة مما اختُزِن في الذاكرة المسترجعة ، ومما ترسب في الذهن من بيئة الغوص ؛ فجاءت الصور أقرب للحدس الفني الشعوري المعتمد على مقاييس جليّة من روافد الحدس الشعوري الباطني (المنطق الداخلي) للأشياء لا من الرؤى السطحية (المنطق الخارجي) . وليس من اليسير تفسير تلك الصور المعتمدة على الحدس الشعوري الداخلي تفسيرا

جليا ؛ ذلك أن العلاقات بين أجزاء الصور - غالبا - ما تتجمع من أشياء غير مألوفة ؛ فتحتاج - في فهم المراد منها ، وفك رموزها ، وتأويلها تأويلا موحيا بالمراد - إلى نظر دقيق ، وتلك رؤية متجمعة من عالم (الأسطورة) أو (الحلم) . وبِعَرْض ملامح الصور الفنية فإن العلاقات بين الأشياء وبين الألفاظ الدالة عليها لا تتضح إلا من خلال كشف الرموز والتفسير البعيد والتصوير الغريب . ومن ثم تتجلى الصور في الأساليب التصويرية ، وتقل في السرد والتقرير الإخباري . والسيطرة على اللغة تأتي في موضعها حين يحسن الاستخدام والتوظيف .

فالنهّام حين عبرّ في أناشيده عن مدى قسوة انتظار الأهل للغائب فمن يخاطب إذن ؟ . إنه يخاطب عيون الأهل لتستريح من شوك السُّهاد ؛ فزَادَ الصورة - بذلك - إيضاحًا وتنويرًا ؛ إذ قد جعل للسهادِ شَوْكًا وجعل عيون الأهل تهدأ وتطمئن . كما قد جعل الغوَاص من حركة المحار وصوته وشوشة للآذان ، والوشوشة من طبيعتها الإسرار والهمس الخفيف ، وما اختلط من الحديث مما لا يكاد يُفهم ؛ ولذا نادى الخليج وجعل الصوت لا مسموعًا ؛ بل دافيء الخدَر[1] (والخدر : الستر والفتور والإرخاء) في نحو قوله :

خليج ما وشوش المحِار في أذني إلا سمعتك صوتـا دافيء الخدَر

والصوت الدافيء الخدر صورة لا تُفهم إلا في سياق النص وما توحى به نفس الشاعر ؛ فأغاني الغوص تحدث جلبة في فكره ، وموج الخليج يتهادى تنقله أصابع الشوق من القلب للبصر ، وسفن الغوص تتراءى كالأقمار في الخليج ، كما أن رمال الشاطيء زهرُ نوَار[2] .

وفي مواقف تجيء الصور معبرة عن حالات القلق والحيرة والخوف والشك

---

(١) القصيبي الدكتور (غازي عبد الرحمن) معركة بلا راية ٨٧ - ٩٠ .

(٢) محمد الفايز : النور من الداخل ١٠ .

والتشتت وقت السرى والظلمة كموج البحر والآفات تواجهه في كل مسلك .

سرى والدجى كالموج ينصب فوقه ومن تحته الآفات سدت له الطرقا[1]

والسفينة في الخليج بلا شراع تهيم في غير ما قصدٍ ، وصوت النهّام فيه رنّة حزن (نهامها كلامه وداع ، غناؤه نشيج) و(سمعنا آهة النهام أعيتها / جبال من هموم ، والظلام دامس الأرجاء يغتال الضياء) والخليج ظالم وغدار وقاس ، والدرة تسعى لجيد امرأة جميلة ، والشراع والحبال يدان حانيتان على الغواص . والليالي سوداء كالكهف الكبير وعينا الغواص تبرق كالمواقد وسط غاب ، والصحب موتى من النوم العميق ، والخناجر عانت مذاق الملح والطين ، والنجم مضمخّ بالعطور بما يفيده معنى مضخ ليس فاح وانتشر حسب ؛ بل تلطخ ، وكثرت العطور حتى كأنه يقطر منها روائح ، والبّحار شيء تغلغل في متاه الليل ؛ بينما عافه البحر ، وأردته قوانين السماء ، وهو بعض إنسان ملقى كالرفات بعد أن عاش سني العمد مصلوب الحياة ، وأشهر الغوص تمطت فتبدت في حساب العمر سنين ، والنور في بيت خلا لولا الحصير ، وفتيل المسرجة كأهداب الضرير ، والأرض ككف بخيلة ، وكأثداء ، حليبها سم ، وقمحها يسطو عليه الدود من عهد قابيل ، والبحار أحنى على الغواص من الأرض التي محلت فلا عطر يضوع فيها ، ولا نبتت كروم ، ومصباح الغواص يلهث مثل عينه التي لا تنام ، والأقمار يخنقها الجدار ، والدّيان الصفيق كجموع الدود في أعماق غواص صغير ، والدر أسود كالليل أعمى ، والبحر أسود كالزنوج ، وضوء النجوم يموت قبل الوصول ، والسراج دبق صغير هيهات يكشف من ظلام مثل صدر المستريب .

وفي مقابل صور الحزن والأسى ثمة صور تعبر عن حالة الفرح والسرور ؛ فالبشرى بقدوم الغواصين طافت بأهل الحي يوم (القفال) ورمال الشط لوعة

---

(١) المصدر السابق نفسه ٩٠ .

وسعادة وقد تأنقت (تأنق الرمل حتى صار أضواء ، وفجر الصخر ألوانا كما شاء) والرمل أورق بالدموع وبالدماء وابن الخليج هنا يترصد الآفاق ، والشط مدّ ذراعيه ، والقلوب تهفو نحو المركب ، والنهام يغني بموال يذوب مع النهار ، والفاتنات ترادى للإياب وتشدور مثلما يشدو القماري ، والنورس يبدي جمالا ويرفرف فوق الصغار ، ويحمل قبلات الغواص ، والغواص آت مثلما يأتي مع الفجر النهار ، والبيوت تزدان والشواطىء تختال بالصبايا اختيال البراري بالأمطار ، والغواص يطوي البحار ويعيد للدنيا حديث السندباد ، والشمس فوق السور تشرق مثل قنديل كبير . . إلخ .

ومن الواضح أن الشعر لا يصنع من الفكر ، ولا يوجد من المعاني ولكن الشعر يوجد من الصياغة والتصوير . والتصوير ينقل للقاريء مدى انفعال الشاعر بالفكرة قبل أن يعبر عن الفكرة في ذاتها . وطريقة ذلك ووسيلته هي الصورة التي لها حرية استخدام اللغة على نحو يوحى بمدى (انفعال) الشاعر بالموضوع ، وعرض الموضوع ذاته على نحو مؤثر ؛ فالقصيدة مجموعة صور لفظية استمدها شعراء الغوص من واقع بيئتهم ، وهي صور ذات ثراء وتنام وأثر نفسي وجمالي . والصور في شعر الغوص صور مبتدعة من خيال وظف كل عناصر الطبيعة ، وتجمعها وحدة التضاد والتجاذب بين الأشياء ؛ فما شأنه الخير من العناصر ومن الطبيعة أو هكذا ينبغي أن يكون يتحول لشر . . وهكذا بدلالات نفسية ومعان داخلية ؛ فيتحول من النقيض إلى النقيض .

والمغزى الجمالي من التصوير والصياغة في شعر الغوص يكشف عما اتصفت به الصور من (حيويّة) ومن بناء (عضوي) بعيد عن مجرد الجمع المتنافر لتنتهي إلى تكثيف المعنى ولتثير ما هو أبعد من المعنى الظاهري الأولي إلى المعنى الثاني لتنقل مشهدًا حيا . وعلى الرغم من اعتماد التصوير على الحواس - إذ لا مفر من استخدام العناصر الحسية - فإن تلك العناصر الحسية اختيرت بعناية تتجاوز مجرد كون العناصر الحسية جميلة أو قبيحة ؛ ولكن لأنها عناصر تستطيع نقل المشاعر

الصادقة نقلا أمينا ومؤثرا . فالصور لم تبعد عن تصوير الموقف من زواياه النفسية والاجتماعية والإيحائية ؛ لقد اعتمدت نقل أحاسيس الشاعر وحالته النفسية في حركة وامتداد يبعد بها عن مجرد التطابق الشكلي في العناصر والمكونات .

ومن ثم يمكن إدراك سر القوة والجمال في أدب الغوص ، ومصادر إعلائه وسموه ؛ فقد جاء نقلة جديدة يتوارى فيها الطابع الفردي حتى لتصير الذات موضوعا والموضوع ذاتا ، وارتفع عن معنى المدح الشخصى إلى الحديث عن الإنسان . وقد امتاز شعر الغوص بقدرات من سعة الامتداد والخلود والتأثير والصدق بمعناه الحقيقي وبمعناه الفني الذي استطاع تحويل المشاعر والرؤى إلى صياغة لغوية وتشكيل فني يمكن أن يترجم على الإحساس المتجدد .

ولقد كان الغواص هو البطل الحقيقي ، وجو الحزن والألم يشيع في أدب الغوص ، وهو حزن على المصير المقدر والمكتوب . وقد مثل تيارا جديدا وواقعيا ، واستخدم صورًا فنية محددة تتمثل في إضفاء ما هو حق . وكان الحنين للماضي شكلا من أشكال التمرد على الحاضر .

★ ★ ★

ثبت بأهم المصادر والمراجع

أولًا : المصادر

١ - من كتب التراث :

١ - ابن النديم (محمد بن اسحاق النديم) المعروف بأبى الفرج بن أبى يعقوب الوراق ؛ الفهرست ليبزج سنة ١٨٧١م .

٢ - ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم) : الشعر والشعراء - القاهرة سنة ١٣٢٧هـ .

٣ - الأصفهانى (أبو الفرج) كتاب الأغانى طبع دار الكتب المصرية بولاق ج ١٩ .

٤ - البغدادي : خزانة الأدب ، القاهرة ، طبعة بولاق ، تاريخ بغداد ، ج ٧ .

٥ - الجاحظ : (أبو عثمان عمرو بن بحر) : البيان والتبيين الجزء الرابع تحقيق وشرح الأستاذ عبد السلام هارن - القاهرة ١٩٨٤ - ١٩٥٠م .

٦ - القرشي : (أبو زيد) جمهرة أشعار العرب تحقيق علي محمد البجاوي - دار النهضة مصر - القاهرة د . ت .

٢ - من دواوين الشعراء :

١ - الأعشى الكبير : ديوان الأعشى .

تحقيق الدكتور محمد محمد حسين ، القاهرة سنة ١٩٥٠ .

٢ - آل ثانى الشيخ (مبارك بن سيف) .

- أنشودة الخليج - الدوحة سنة ١٩٨٤م ، الطبعة الثانية .

- الليل والضفاف - قطر سنة ١٩٨٣ ، الطبعة ١ مطابع قطر الوطنية .

٣ - خلف (فاضل) .

على ضفاف مجردة - الكويت - مطبعة حكومة الكويت د . ت .

٤ - خليفة (علي عبد الله) .

أنين الصواري - بيروت ١٩٦٩ ، دار الآداب .

٥ - الخليفة (أحمد محمد) .

- من أغانى البحرين - بيروت سنة ١٩٥٥ ، دار الكشاف .

- بقايا الغدران - البحرين سنة ١٩٦٦ - المطبعة الشرقية .

٦ - رفيع (عبد الرحمن) .

أغاني البحار الأربعة - بيروت سنة ١٩٧٠ ، دار العودة .

٧ - العدواني (أحمد مشاري) .

أجنحة العاصفة جمع خالد سعود الزيد ؛ والدكتور سليمان الشطي - الكويت سنة ١٩٨٠م ، نشر شركة الربيعان للنشر والتوزيع .

٨ - الفايز (محمد فايز العلي) .

النور من الداخل ، الكويت سنة ١٩٦٦م ، رسوم من النغم المفكر .

٩ - القصيبي الدكتور (غازي عبد الرحمن) .

- أشعار من جزائر اللؤلؤ بيروت ، سنة ١٩٦٠ ، دار الكتب .

- معركة بلا ربة ، بيروت سنة ١٩٧١م ، دار الكتب .

١٠ - لبيد : ديوان لبيد بن ربيعة .

تحقيق ضياء الدين الخالدي المقدسي ، فيينا سنة ١٢٩٧هـ /١٨٨٠م .

ثانيا : المراجع

١ - آل مبارك الدكتور (عبد الله) :

الأدب العربي المعاصر في الجزيرة العربية .

٢ - بروكلمان (كارل) :

تاريخ الأدب العربى ، ج١ ، القاهرة ، طبع دار المعارف .

٣ - الحاوي (إيليا) :

الشعر العربى المعاصر - بدر شاكر السياب شاعر الاناشيد والمرائى ، بيروت ، ١٩٨٠م ، دار الكتاب اللباني طبعه٢ .

٤ - الحقيل (عبد الكريم) :

شعراء العصر الحديث في جزيرة العرب ، الجزء الأول .

٥ - الدرهم (هيا محمد عبد العزيز) :

صورة البحر في الشعر العربي الحديث بالخليج (١٩٦٠ - ١٩٨٠م) قطر سنة ١٩٨٦م ، الطبعة١ ، دار الثقافة .

٦ - الرميحي الدكتور (محمد) :

البترول والتغير الاجتماعي في الخليج العربي ، القاهرة سنة ١٩٧٥م ، معهد البحوث والدراسات العربية .

٧ - الرومي الدكتورة (نورية صالح) :

الحركة الشعرية في الخليج العربى بين التقليد والتطور - الكويت سنة ١٩٨٠م ، الطبعة ١ .

٨ - الريحانى (أمين) :

ملوك العرب ، بيروت سنة ١٩٦٧م ، الطبعة٥ - دار الريحانى للطباعة والنشر .

٩ - الزركلى :

الأعلام ج٧ .

١٠ - الزيد (خالد سعود) :

أدباء الكويت في قرنين ، الأجزاء ١ ، ٢ ، ٣ ، الكويت سنة ١٩٨٢م - شركة الربيعان للنشر والتوزيع .

١١ - زيدان (جورجى) :

تاريخ آداب اللغة العربية ، ج١ .

١٢ - السالم (يوسف) :

معجم أدباء وشعراء الكويت .

١٣ - الشرباصي الدكتور (أحمد) :

أيام الكويت .

١٤ - شكري الدكتور (علياء) .

بعض ملامح التغير الاجتماعى والثقافي في الوطن العربي ، القاهرة سنة ١٩٧٩م طبعة١ ، دار الكتاب للتوزيع .

١٥ - الشملان (سيف مرزوق) :

تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت والخليج العربى ، ج١ ، ٢ - الكويت سنة ١٩٧٥ ، الطبعة١ مطبعة حكومة الكويت .

١٦ - الشملان (عبد الله خليفة) :

صناعة الغوص .

١٧ - الصرعاوي (عبد العزيز) :

دراسات في الشئون الاجتماعية والعمالية - الكويت سنة ١٩٦٥ ، مطبعة حكومة الكويت .

١٨ - الطائي (عبد الله محمد) :

الأدب المعاصر في الخليج العربي ، القاهرة سنة ١٩٧٤م ، الطبعة١ مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية .

١٩ - عبد الدايم الدكتور (يحيى ابراهيم) :

الترجمة الذاتية في الأدب الحديث - بيروت سنة ١٩٧٤م الطبعة١ .

٢٠ - عبد الله الدكتور (محمد حسن) :

- الحركة الأدبية والفكرية في الكويت ج١ - الكويت سنة ١٩٧٣م ، رابطة الأدباء في الكويت .

- الشعر والشعراء في الكويت - الكويت سنة ١٩٨٧م الطبعة١ منشورات دار السلاسل .

٢١ - عبد النور (جبور) :

المعجم الأدبى - بيروت سنة ١٩٧٩م ، دار العلم للملايين .

٢٢ - عثمان الدكتور (أمين) :

في اللغة والفكر - القاهرة سنة ١٩٦٧ - مطبعة النهضة الجديدة ، مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية .

٢٣ - العريفى (راشد) :

فنون شعبية - البحرين سنة ١٩٧٣ .

٢٤ - فهمى الأستاذ الدكتور (ماهر حسن) :

تطور الشعر العربي الحديث بمنطقة الخليج - سوريا سنة ١٩٨١م - مؤسسة الرسالة .

٢٥ - فيشر (أرنست) :

ضرورة الفن ، ترجمة أسعد حليم ، القاهرة سنة ١٩٧١م ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر .

٢٦ - قطب (سيد) :

كتب وشخصيات ، القاهرة سنة ١٩٨١ ، دار الشروق . الطبعة٢ .

٢٧ - كحالة (عمر رضا) :

معجم المؤلفين ج١٠ .

٢٨ - اللواتى (شمس الدين أبو عبد الله محمد) :

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفارج الجزء الأول تحقيق الدكتور على المنتصر الكتانى - بيروت سنة ١٩٨١ طبعة٣ مؤسسة الرسالة .

٢٩ - لوريمر (ج .ج) :

دليل الخليج - القسم التاريخى - ج٦ قطر - د . ت .

٣٠ - محفوظ (حافظ) :

أقلام خليجية - الكويت سنة ١٩٨١م ، شركة الربيعان للنشر والتوزيع .

٣١ - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم معهد البحوث والدراسات العربية :

دراسات في أدب البحرين بإشراف الأستاذ محمد خلف الله أحمد :

والدكتورة سهير القلماوي - القاهرة سنة ١٩٧٩م مطبوعات معهد الدراسات العربية .

٣٢ - الهاشمى الدكتور (علوي) :

ما قالته النخلة للبحر ، دراسة فنية في شعر البحرين المعاصر ١٩٢٥ - ١٩٧٥م - بغداد سنة ١٩٨١م ، دار الحرية للطباعة .

٣٣ - الوقيان الدكتور (خليفة) :

القضية العربية في الشعر الكويتى .

ثالثا : الدوريات

١ - جاسم (هيا) من أغانى البحر في الخليج (توب توب يا بحر) مقال منشور في مجلة الماثورات الشعبية عدد٢ يناير ١٩٩١م .

٢ - الرفاعى (حصة سيد زيد) : الأغنية البحرية الكويتية ، مقال سلسلة ندوات التخطيط لدراسة التراث الشعبى ، مجلد٢ - الدوحة ١٩٨٥م ، الطبعة١ .

★ ★ ★

مشروع إعداد نسخة إلكترونية
لمجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية
إعداد وتنفيذ
أ.د/ يوسف محمد فتحي عبد الوهاب
استاذ ورئيس قسم الأدب والنقد في الكلية